Hewar
Publishing and Distribution
رواية
فَتَاةٌ
مِنْ عَينِ التَّمرِ
كِفَاحٌ مِن أجلِ حَياةٍ أفْضَل
محمد حسين النجفي
محمد حسين النجفي
فتاة من عين التمر

فَتَاةٌ مِنْ عَينِ التَّمرِ

كِفَاحٌ مِن أجلِ حَياةٍ أفْضَل

عنوان الكتاب: فَتَاةٌ مِنْ عَينِ التَّمرِ
كِفَاحٌ مِن أجلِ حَياةٍ أفْضَل
المؤلف: محمد حسين النجفي
التخصص: رواية
القياس: 14 x 21 سم
الطبعة الاولى: 120 صفحة /23 آذار 2027
ISBN: 978-9922-5613-1-8
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

العراق- بغداد- شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
07712482615
أهوار للنشر والتوزيع :face
دار ومكتبة أهوار :page
Instagram: darahwar
E-mail : ahwar.publisher@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله بأي شكل من الاشكال من دون إذن خطي من الناشر.

رواية

محمد حسين النجفي

فَتَاةٌ مِنْ عَينِ التَّمرِ

كِفَاحٌ مِن أجلِ حَياةٍ أفْضَل

الحوار للنشر والتوزيع

الإهداء

الى من أستلهمت من صلابة إرادتها

وقوة شخصيتها

وقدرتها على التضحية في سبيل حياة أفضل ...

الى هاسميك

زوجتي الحبيبة

التي رحلت قبل الأوان

هذا العام

وتركت فراغاً

في الروح والحياة

إلى فتيات العراق

اللاتي تعرضن للإساءة

إلى الفتيات الشامخات

اللاتي لن يتقبلن الخنوع

إلى الثائرات والمتمردات

إلى من دفعن ثمنًا غاليًا

لكبريائهن

مقدمـــة

مـرّ عـراق سـتينيّات القـرن العشـرين بظـروف وأحـداث متميـزة في وقعها وآثارها الـتي ما زالت جـزءًا من التاريـخ العـراقيّ الـحيّ الـذي يتحـاور بـه المثقفـون والأميّـون، المسـنون والشـبان، السياسـيّون واللا منتمون، الرجال والنساء.

في خضم تلك الأحداث، تعيش بطلة هذه الرواية "هدية" الفتاة البريئة من مدينـة عـين التمر النائية في صحراء محافظة كـربلاء، الـتي تتعـرض لاضـطهاد القـيم الاجتماعيّة البالية ما يحـتّم عليها اتخاذ قـرارات مصيريّة مؤلمة وصعبة جدًا، للحفاظ على كرامتها ومستقبلها.

وكأيّ فتاة تجد نفسها منساقة في علاقات ربّما ليست مناسبة لها، تضـطر "هديـة" لأن تأخـذ زمـام المبادرة لتغيير مجـرى حياتهـا كي تحافظ على شرفها وتصون كرامتها.

وعلى الرغم من كلّ البؤس الذي تعرضت له بطلتنا، إلّا أنّ الحظّ حالفها بتعرّفها على شاب استطاع أن يحبّها ويحميها ويكون رفيقًا لدربها، ولكنّ السعادة من طبعها ألّا تدوم.

أبطـال هـذه الروايـة نوعـان؛ قسـم منهمـا افـتراضيّ، لكنّـه واقـعيّ، والقسـم الآخـر حقـيقيّ، كما حـال الوقائع، فإنّ قسمًا منها مفترض

لكنّـه واقـعيّ، والقسـم الآخـر حقـيقيّ مـن الأرشـيف وإن عُـرض بتصـرف. الهـدف مـن ذلـك هـو اسـترجاع الـذاكرة المأسـاويّة في سـتينيّات القـرن المـاضي مـن خـلال قصّـة فتـاة، نمـوذج لفتـاة عراقيّة.

تنـتهي القصّـة بأحـداث انقـلاب 8 شـباط 1963 الـدامي، الـذي واجهته مدينـة الكاظميّـة ببسـالة منقطعـة النظـير، حيـث شـارك أبطـال هـذه القصّـة بأحـداثها وسـجلوا تاريخًـا مُشـرّفاً لمـدينتهم، وللشعب العراقيّ وللحركة التي ينتمون إل

عين التمر

ظلّ هاجس الخوف ملازمًا لها والرعب لا يفارقها، تحسّ أحيانًا أنّ أهلها على مقربة منها، وأنهم على وشك العثور عليها، فيقشعر جسدها ويتصبب العرق من جبينها وترتجف أوصالها؛ لأنّها تتذكر وهي طفلة، كيف أنّ أخًا في حارتهم نحر أخته من الوريد إلى الوريد، وتركها ممددة لساعات مغطاة بعباءتها السوداء، وما زالت تتذكر كيف أن دماءها نفدت من تحت عباءتها لتشكل بركة صغيرة من دماء ضحيّة الأعراف والتقاليد والجهل المدقع. لم تستطع "هدية" أن تُبعد شبح الخوف والرعب من المصير المحتمل، وتُذكرها هذه الهواجس بقصّتها التي مضى عليها أعوام إلا أنّها ما زالت معشعشة في باطن مخيّلتها، في منامها وفي صحوها.

فقبل أن يكون هناك اضطهاد سياسيّ أو استغلال اقتصاديّ، كان هناك تعسف وعنف وظلم اجتماعيّ، ولعلّ التاريخ يخبرنا إنّ المضطهدين هم دائمًا رجال العائلة، والمضطهدين هم عادة أطفالها ونسائها. وهكذا بدأت قصة فتاة من مدينة نائية في صحراء محافظة كربلاء العراقيّة، مدينة يُضرب بها المثل القائل: "يريد شفيّة من شفاثه". وشفاثه هو الاسم الشائع لمدينة بُنيت حول واحة من نخيل التمور وعيون كبريتيّة ذات رائحة كريهة، توصف للاستحمام بها لمن يشكو أمراضًا جلديّة.

شفاثه هو الاسم الدارج للمدينة، أمّا اسمها الرسميّ فهو "عين التمر" التي أصبحت ناحية من نواحي محافظة كربلاء بعد أن كانت واحة نخيل ومياه معدنيّة في الصحراء الغربيّة. كانت هذه المدينة تعيش في خمسينيّات وستينيّات القرن الماضي، وربما ما زالت على قيم بدويّة وريفيّة، وضمن البعد الرجعيّ لهذه القيم.

وصل إلى سمع "هدية"، وهي فتاة قصّتنا، أنّ عائلتها تُسهّل أمر زواجها من رجل من عُمرِ والدها، لتكون الزوجة الثانية، الصبيّة القويّة التي ستخدم الزوج والزوجة وأبنائهما. وقد سبق لهدية أن أُجبرت على ترك الدراسة بعد المتوسطة، لتكون المساعدة واليد اليمنى لوالدتها في شؤون البيت وفي الخياطة والتطريز وإصلاح الملابس، حيث إن أمّها كانت خيّاطة المحلة التي تسكن فيها، حينما كانت العادة في ذلك الزمان، شراء أقمشة من التجّار ثمّ الذهاب للخيّاط أو الخيّاطة لتفصيلها لهم على المقاس.

وعلى الرغم من أن "هدية" لم تكن مثقفة، وليست ناشطة سياسيّة للدفاع عن حقوق المرأة، إلّا أنها كانت متأثرة بالشعارات

والدور الجديد الذي رفع من مكانة المرأة بعد ثورة الرابع عشر.من تموز عام ثمانية وخمسين وتسعمئة وألف، لذا أحست بالغبن وعدم التكافؤ، وأنّ زواجًا كهذا سيكون مجحفًا بحقّها ولن يكون مناسبًا لها. تحدثت إلى أمّها عدّة مرات، إلّا أنّها كانت تسمع نفس الإجابة كلّ مرّة: "يا بنتي، الشور شور الحجي، وهو أدرى بمصلحتجِ مني ومنج". فقدت "هدية" الأمل بعد أن سمعت إجابة والدتها مرارًا وتكرارًا، وبدأت تفكر بحلٍّ ينقذها من هذا الزواج، تذكرت صديقة طفولتها "غنية" التي رحلت إلى بغداد للعمل في شارع النهر، وهو الشارع الذي تبتاع منه نساء بغداد أجمل الملابس والحُلي.

استجمعت هدية قواها مع قليل من النقود التي في حوزتها، وهربت في صباح مبكر إلى موقف كربلاء، ومن كربلاء ركبت باصات (حافلات) "دك النجف" (صناعة النجف)، التي أوصلتها إلى موقف علاوي الحلة في بغداد، ومن هناك ذهبت إلى شارع النهر للبحث عن ابنة مدينتها التي قد تكون مرت بظروف مماثلة لها. أرهقها السفر الطويل الذي استغرق النهار بطوله، ولم يكن البحث عن غنية أمرًا سهلًا، إلّا أن الحظّ حالفها وعثرت عليها بعد أن امتلكها الذعر؛ لأنّها لا تملك أيّ بديل سوى العثور عليها.

تعمل غنية في محل لبيع بدلات العرائس للعوائل الراقية، محل واسع تُعرض فيه آخر التصاميم الفرنسيّة والإيطاليّة ومُجهز بورشة خياطة وإصلاح متكاملة، زبائنهم نخبة العوائل الأرستقراطيّة والغنيّة من ساكني المنصور والأعظميّة والكرادة الشرقيّة.

فرحت غنية كثيرًا برؤية هدية، وكان الدوام قد شارف على الانتهاء، صحبتها إلى مسكنها الذي هو غرفة مؤجرة في بيت شرقيّ، كان يومًا ما من بيوت إحدى العوائل اليهوديّة، في حي "عكد النصارى" من الجهة الثانية (الشرقيّة) لشارع الرشيد. لم يسعهما الليل كلّه لتداول الحديث بين الصديقتين، واسترجاعهما لحكايات وذكريات قديمة، تقاسما الهموم والتأسف والشعور بالضعف والهوان لما لحق بهما من ظلم وجور من أهلهما.

استطاعت غنية في اليوم التالي إقناع "طارق" ابن صاحب المتجر، أن يوظف هدية في نفس المحل، كمساعدة لها في خياطة بدلات العرائس لجميلات بغداد. طارق الابن الأكبر لصاحب المحل، طالب في كلية التجارة ويساعد والده بمراجعة الحسابات، ولديه مزاج في العمل التجاري الذي يرى فيه مستقبلًا له.

شارع النهر

لفتت عاملة الخياطة الجديدة التي كانت تحاول إخفاء وجهها ووجودها في الورشة انتباه طارق، متذكرة دائمًا أن أهلها يبحثون عنها ولن يرتاح لهم بال حتى يجدوها لتلقى المصير المحتوم. أخذ الفضول مجراه عند طارق مما اضطره لسؤال غنية عنها، واستمر في طرح الأسئلة محاولًا معرفة تفاصيل تحاول غنية عدم البوح بها. انزعجت غنية من اهتمام طارق بصديقتها هدية، ربما لأنّها كانت مولعة به أو أنّها كانت تتأمل أن يهتم بها بدل انشغاله بصديقتها.

لمحت هدية طارق وغنية وهما يتحدثان، وساورتها الشكوك من خلال النظرات والإشارات أنّ الحديث كان حولها، صاحَبَ ذلك شعور متناقض بالخوف والقلق من جهة، والتطلع بطموح

لمستقبل أفضل من جهة أخرى، مستقبل زاهر في بغداد الجميلة التي انبهرت بمحالها وحدائقها وشوارعها العريضة.

لم تكن هدية فتاة جميلة وفق المعيار البغداديّ، لم تكن نحيفة ولا طويلة، ليست بيضاء وشعرها لم يكن ذهبيًّا وعيونها لا هي زرقاء ولا خضراء، إلّا أنّ دمها كان خفيفًا وجمالها فطريّ، سمراء ذات عينين بدويّتين سوداوين وواسعتين، وحاجبين عريضين وصدر شامخ وجسم ممتلئ بأنوثة صارخة، وجهها دائريّ قمريّ، خدّاها شكلهما تفاحيّ، يمنحان ابتسامتها رصعه توحي ببراءة طفوليّة تجلب الانتباه.

يتعايش طارق بحكم موقعه وطبيعة حياته الاجتماعيّة مع الكثير من الفتيات الجامعيّات الجميلات، الأنيقات بالملبس والخبيرات بفن المكياج المُجسم الذي يبرز الأنوثة من بين ثنايا رتابة الزيّ الجامعيّ الموحد. إلّا أنّه وجد في هذه الفتاة القادمة من أقاصي العالم، من مدينة لم يسمع بها من قبل، نكهة حُسنٍ مفتقدة في الأكاديميّة وفي أحياء ونوادي بغداد الأرستقراطيّة، طبيعيّة غير متصنعة دون مكياج أو تجميل مبالغ به، بسيطة في الكلام، خجولة جدًا، عفيفة النفس على الرغم من صعوبة الحياة التي تمرّ بها، تلك هي عاملة الخياطة الجديدة التي بدأت تأخذ حيّزًا كبيرًا من تفكير طارق.

حاول طارق أن يلفت انتباه هدية عدّة مرات، يزور ورشة الخياطة لسبب أو بلا سبب، علمًا أنّ طبيعة عمله لا علاقة لها بورشة الخياطة. أمّا هدية فكانت تتصنع عدم الانتباه له؛ لأنّها تعلم بالفوارق الطبقيّة والاجتماعيّة والثقافيّة بينهما، كما أنّها لم

تلقَ تشجيعًا من صديقتها غنية التي كانت تنصحها بتجنب ذلك والتركيز على مستقبلها.

استطاعت هدية إثبات مهارتها وجدارتها في الخياطة كي تحافظ على مصدر رزقها ومعيلها الوحيد. ومع مضيّ الأيام، بدأت بالتعرّف على مدينة بغداد أكثر، والاعتماد على نفسها في الأمور الحياتيّة، وتدريجيًّا بدا عليها الاعتناء بنفسها من حيث الشكل والمضمون، تخلصت من ملابس عين التمر، التي كانت من فصال وخياطة والدتها، وأبدلتها بملابس جديدة جاهزة اشترتها من شارع النهر الذي تعمل فيه، ولمّعت من مظهرها كثيرًا دون أن تتجاوز الحدود المعقولة لما تربت عليه واعتادت على تقبله.

التغيّر الرئيس الذي تسعى هدية لبلوغه هو حصولها على التعليم الذي حُرمت منه، أو بمعنى أصح حرموها منه، لذا قررت التسجيل في ثانوية مسائيّة للبنات، وركزت على ذلك وأخذت تشعر أن حياتها بدأت تأخذ المجرى الذي كانت تصبو إليه. إلّا أنّها لا يمر يوم لا تتذكر فيه والدتها وأبيها وإخوتها والجيران وصديقات الطفولة، وتحنّ إلى شفاثه، على الرغم من أنّها تعلم علم اليقين أنّها باتت مُحرمة عليها مدى العمر.

فاجأها طارق نهاية دوام أحد الأيام ليتحدث معها عن مشاغل حياتها وما إذا كانت بحاجة لدعم أو مساعدة معيّنة، شكرته وأظهرت امتنانًا صادقًا لمنحها فرصة العمل بورشة والده، وأنها سعيدة على هذه الحال. لمّح لها طارق أنّه معجب بها دون أن يضغط عليها أو يطلب منها شيئًا، لم تستغرب كثيرًا على الرغم

من أنّها تظاهرت بالاندهاش، مع ذلك ارتبكت فعلًا وتلعثمت في الحديث لعدم وجود سابقة لها في أمر كهذا.

تركت الورشة ذاهبة إلى المدرسة وهي تسير كفراشة تسبح في ربيع منتزه مليء بأنواع الزهور، راودتها رغبة مُلحة بالانغماس في تجربة العشق والحب والغرام، وبدأت تفكر أنّ طارق مفتاحها لحياة أفضل، إلّا أنّ وعيها الفطريّ كان دائمًا يوقظها من أحلام تعلم هي قبل غيرها أنّها صعبة المنال.

أدرك طارق الوعي السياسيّ إبان ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958، وتأثر إلى حدّ كبير بالأفكار القوميّة لقائد الثورة المصريّة جمال عبد الناصر، وبالروح الوطنيّة للزعيم عبد الكريم قاسم، وللفكر اليساريّ الذي يدعو إلى إزالة الفوارق الطبقيّة والاجتماعيّة ويدعو إلى تحسين حياة الفقراء، إلّا أنّه على الرغم من ذلك ابن عائلة برجوازيّة متمكنة ويتمتع بمزايا ماديّة واجتماعيّة، لا يمكن أن يتنازل عنها، وإنّ حبّه للفقراء مجرد مشاعر وأمنيات مثالية لا تعني أن يمزج حياته بحياتهم أو حياتهم بحياته.

إلّا أنّ الشرارة التي نتجت من احتكاك حجرين، أصبح من الصعب إطفاؤها دون منحها الفرصة للاحتراق والتحوّل إلى رماد لا حرارة فيه ولا دفئ يحتويه. طلب طارق من هدية أن يُريها بغداد في الليل من خلال جولة في سيّارته، اعتذرت منه عدّة مرات بحجج واهية في معظمها، إلّا أنّها رضخت في النهاية؛ لأنّه كان في طلبه لحوحًا بأدب، ولأنّ مشاعر الهوى بدأت تأخذ منحاها إليها.

تكررت رحلات السيارة لتشمل كورنيش أبو نوأس وحديقة الأمة التي رُفع الستار مؤخرًا فيها عن نصب الحرية للفنان جواد سليم وسينما النصر، ووو. وفي جلسة شاعريّة في مطعم فوانيس في شارع السعدون، صارح طارق هدية أنّه معجب بها ويريد أن تتطور العلاقة بينهما نحو إشباع أكثر. في مفهوم هدية لا يعني ذلك إلّا الزواج، بينما أراد طارق أن يُطوّر العلاقة عاطفيًّا دون ربطها بالتزامات رسميّة، وفي كلّ مرّة كانا يتقاربان جسديًّا أكثر من سابقه، مسكة يد من هنا ولمست شعر من هناك ودغدغة من هنا وهناك، كان الاثنان يتحسسان هياجًا في المشاعر تتوج كلّ مرّة بقبل حارة وعناق طويل قبل أن يفترقا.

بحيرة الحبانيّة

فرحت هدية لأنّ طارق وعدها بسفرة إلى بحيرة الحبانيّة، التي سمعت عنها كثيرًا، هيّأت نفسها لهذه السفرة التي تأملت أنّها ستكون خطوة مهمة في تطوير علاقتهما، وكعادتها خلعت هدية عباءتها قبل الصعود إلى سيارة طارق، وزهت مفاتن جسدها على الرغم من مقاومة ملابسها الجديدة لحجبه. كان صباح يوم من أيام الجمع، والطريق سهل وممتع خاصّة وهما يسمعان كاسيت لآخر أغاني عبد الحليم حافظ، لحين وصولهما إلى بحيرة الحبانيّة. توقف طارق أمام مكتب إدارة المنتجع السياحيّ لبحيرة الحبانيّة، ليستلم مفتاح الكابينة المحجوزة له، أثار ذلك استغراب هدية بعض الشيء، حيث كان في تصوّرها أنّهما ذاهبان لبحيرة الحبانيّة كي يجلسا على رمال شاطئها ويلعبا في مياه جرفها.

دخـلا الكابينـة، وقبـل أن يمضـي وقـت طويـل تقـدّم طـارق واحتضنها، ارتجفت وشعرت بجمال العاطفة التي اهتز لها بدنها بجميع أوصاله، استمرت القبلات الحارّة بينهما حتى مسك بيديه وسطها ليمددها على السرير، رفع رأسه كي يقبّلها لتصدمه رؤية دموعها، أهي دموع فرح! أم دموع خوف! أم دموع رجاء! وكأنّها تقول له إنّني في حالة خضوع وضعف شديدين يا طارق، فلا تستغلّ ذلك وتغدر بي.

انتبه طارق إلى طبيعة دموعها وعرف معناها دون أن يستجوبها، زرع قبلة حنان على جبينها وساعدها على الجلوس على السرير بدل الاستلقاء عليه، وأحسّ بذنب كبير، خجل من نفسه وحاول ألّا تتصادم نظرات عيونهما. ظلّ يفكر، ماذا لو استمر الحال وحصل ما حصل! ماذا سيكون مصيرها وماذا سيكون مصيره! وأخيرًا استجمع قواه وقال لها: ما رأيك أن نأكل شيئًا في الكازينو ثم نذهب كي "نُطبش" في الماء. لمعت عيون هدية وبكت بحرارة هذه المرة من الفرح، وأنّ طارق الشهم لم يغدر بها، لا بل حتى حماها من رغبة مُلحة في نفسها.

استفاق الاثنان بعد ذلك اليوم من الحلم الجميل، ليسأل طارق نفسه عدّة مرات، هل إنّ هدية يمكن أن تكون الزوجة المستقبليّة له! هل ستكون مناسبة ومتوافقة مع طموحاته الشخصيّة والعائليّة! هل يحبّها لدرجة أنّه مستعد لأن يخالف عائلته! ما هو مستقبل العلاقة بينهما، هل يمكن أن تتقبله بعد ذلك، هل إنّه مستعد أن يقطع علاقته بها، أسئلة كثيرة ومتعبة لا أجوبة محددة لها، ومرّت الأيام ولم يستطع أن يحسم أمره.

وسألت هدية نفسها، هل إنّها مُستعدة لأن تقيم علاقة لا تؤدي إلى الزواج، وهل من الممكن أن يتزوجها طارق في يوم ما؟ وحتى لو أراد أن يتزوجها، هل هو الشخص المناسب لها، هل إنّ عائلته ستتقبلها كزوجة بالتمام والكمال، أم أنّها ستكون الزوجة الفقيرة التي يُعتمد عليها في الشؤون المنزلية؟

لم تعد هدية تستمتع كما كانت بالذهاب إلى العمل بشوق ولهفة كالأيام التي خلت، ولم يعد طارق يبتكر الحجج كي يزور ورشة الخياطة لا لسبب سوى لرؤية ابتسامة المحبوبة ذات الرصعتين. كلّ شيء أصبح باهتًا وباردًا لا حرارة فيه، أصبح اليوم يمضي بطيئًا بشكل ممل ومستفز. وعلى الرغم من أنّها وصلت إلى قرار الابتعاد عن طارق، إلّا أنّها كانت تترقب قدومه إلى الورشة أو الاعتذار منها وأن يطلب تجديد العلاقة بشكل ما، إلّا أنّ أيّ شيء من ذلك لم يحدث.

ولم يكن حال طارق بأفضل من هدية، واقعة أو مشهد الحبانيّة لا يفارق مخيّلته، أحيانًا يُخطّئ نفسه ويلومها على تسرعه، وأحيانًا يرى أنّ العلاقة كان يجب أن تتطور بشكل أو بآخر، أحيانًا يرى ردّ فعلها نمطًا رجعيًّا في التفكير، إلّا أنّه يعارض نفسه ليفسره عزّة نفس وكرامة وحفاظًا على العفة والشرف. هل تصلح أن تكون زوجة أم لا؟ سؤال لم تُحسم إجابته، كلّ الذي يراه أنّها من بيئة مختلفة تمامًا من الصعب أن تتقبلها هوانم المنصور ونبلاؤها!

لاحظت غنية جنوح هدية إلى الانعزال والابتعاد عنها على الرغم من أنّهما ما زالا يعيشان في نفس الغرفة، حاولت عدّة مرات أن

ترطـب الأجـواء إلّا أنّهـا لـم تفلـح، بطبيعـة الحـال علمـت أنّ الموضوع يرتبط بعلاقتها بطارق، الذي لاحظ الجميع عدم تردده أو حتى انقطاعه عن الورشة. كانت مشاعر غنية تتعاطف مع ابنة مدينتها وجارة حارتها ومن ريحة الأهل من عين التمر، على الرغم من أنّها تعتقد أنّه كان من الأولى أن يُحبّها طارق بدلًا منها.

الشرخ

لم يمضِ وقت طويل على نجاح ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958م، حتى بدأت الخلافات بين قادتها تتوسع كلّ يوم، لتصل إلى الشارع العراقيّ، الذي انقسم بدوره على مؤيد للعقيد عبد السلام عارف الذي كان يدعو للوحدة الفوريّة مع الجمهوريّة العربيّة المتحدة (مصر وسوريا) بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، وبين الزعيم الركن عبد الكريم قاسم قائد ثورة تموز الذي كان يؤمن بتكوين اتحاد فدراليّ ينمو تدريجيًّا بخطوات متأنية ومدروسة. أيّد القوميون العرب وحزب البعث العقيد عارف والوحدة الفوريّة، بينما ساند الشيوعيّون والوطنيّون الزعيم عبد الكريم قاسم. أصبح هذا الموضوع يناقش جماهيريًّا وفي الدوائر الرسميّة وفي المدارس والجوامع والنوادي وفي الأزقة السكنيّة، والذي أحدث شرخًا غير مسبوق بين أبناء الشعب العراقيّ، حتى أنّه في أحد الأيام حدث حوار حار بين اثنين من العاملين في متجر

ملابس العرائس أدّى إلى شجار كاد أن يتطوّر لولا تدخل طارق الذي أظهر انحيازًا واضحًا لفكرة الوحدة العربيّة الفوريّة بقيادة جمال عبد الناصر.

وهي عائدة من العمل باتجاه البيت شاردة الذهن، تفكر دون انقطاع فيما حدث في الحبانيّة وما تبع ذلك من انقطاع تواصل طارق معها، مناقشة بينها وبين نفسها الخيارات وصواب القرارات ومشاقها، استفاقت على سماع تصفيق مألوف لديها، علمت أنّه الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم الذي تحبّه كغيرها من الناس دون تفكير عميق، إنّه شخص وطنيّ وغيور وقريب إلى قلوب الفقراء. كان ذلك مساء يوم الأربعاء الموافق 7 تشرين الأوّل من عام 1959، وهي عائدة من شارع النهر ذاهبة إلى بيتها في محلة "عكد النصارى"، لا بدّ لها من أن تعبر شارع الرشيد إلى الجهة المقابلة في منطقة راس القرية. فتهيّأت لترى الزعيم يصلها فصفقت له بعفويّة، وما إن ابتعد عنها بمسافة قصيرة حتى بدأ أزيز الرصاص يصم أذنيها والهرج والمرج شكلّ رعبًا غير مسبوق في حياتها، وبدا الناس مذعورين يدخلون في الأزقة المؤدية إلى عكد النصارى ومحلة "العمار"، وهدية واحدة منهم. لم تصدق وصولها إلى البيت سالمةً، لتفتح راديو الترانزستر الصغير لتسمع الأخبار.

لا يوجد أيّ خبر بعد، كلّ شيء طبيعيّ، بعد ذلك بقليل، توقف البثّ الاعتياديّ، وتحوّل إلى إذاعة الأغاني والأناشيد الوطنيّة، ثم أذيع بيان أنّ الزعيم قد نجى من محاولة آثمة لاغتياله، على الرغم من إصابته بعدة طلقات ناريّة. اهتزت هدية لهذا الحدث الذي كان يعيد نفسه في ذاكرتها كلّما شرد ذهنها أو استلقت على

الفراش قبل أن تنام، تتصوّر أمام عينيها أصوات الرصاص المرعبة والضجيج والصياح والهلع، وتعيد استنشاق رائحة البارود الخانقة.

ربطت هدية العلاقة مع طارق بما حدث لها في عين التمر، ووجدت أنّ الحالتين متشابهتين، ستكون الطرف الضعيف والمُضطهد في العلاقة، لذا قررت هدية أن تبني مستقبلها بعيدًا عن شارع النهر الذي تحوّل إلى شارع للحبّ الممنوع، واتخذت قرارات شجاعة تنم عن فطرة صلبة، فبحثت ووجدت عملًا بعيدًا عن صديقتها غنية، وبعيدًا عن حبّ ظلّ قاصرًا، وتوقف عن النمو والنضوج، حبّ لا تستطيع مقاومته إلّا بالابتعاد عنه، ولتبقى ذكرى طارق في القلب خالدة كتجربة حبّ ومشاعر جميلة، لا عائقًا أو معوقًا لمسيرة حياتها، ولتكون قصّة حبّ مضافة لكتاب كان يا ما كان.

الكاظميـــّة

انتقلت هدية إلى مدينة الكاظميّة شمالي مدينة بغداد، واستقرت في محلة "أم النومي"، وهي من المحلات الشعبيّة القديمة التي تسكنها الطبقة الفقيرة والمتوسطة. عملها الجديد كان في مشغل صغير للغزل والحياكة، تملكه "أم ياسين" وهي أرملة عريف في الجيش، استشهد في حرب فلسطين عام 1948. الكلّ يحبّ ويحترم أم ياسين؛ لأنّها تعدّ كلّ العاملين أبناءها، ترعاهم وبنفس الوقت تحاسبهم على أدائهم وتصرفاتهم، ليس باعتبارها المالكة والمديرة، إنّما باعتبارهم أفرادًا من عائلتها. معظم العاملين نساء، فيما عدا الميكانيكيّ الذي يقوم بصيانة وتصليح المكائن واسمه "علي" والكلّ يناديه "أبو حسين" وسائق الشاحنة وهو رجل كبير بالسنّ ومن أصدقاء المرحوم أبو ياسين، واسمه "كاظم" والكلّ يناديه "حجي كاظم" احترامًا لعمره وحسن أخلاقه، على الرغم من أنّه - في حقيقة الأمر - لم يؤدِ مناسك الحجّ بعد.

بدأت هدية تشعر بالأمان لأوّل مرّة، وأنّها بين أهلها الجدد منذ أن فارقت أهلها في "عين التمر". إنّ مدينة الكاظميّة مشابهة لمسقط رأسها في كثير من النواحي، كلّ النساء هنا يلبسن العباءة السوداء، الكلّ مسلمون وشيعة، تسمع التكبير والأذان من منارات الروضة الكاظميّة، الكثير من الرجال يلبسون الدشاديش والملابس التقليديّة. الحياة في الكاظميّة مستقرة وهادئة ووتيرتها أقلّ صخبًا من وسط بغداد حيث الازدحام وضجيج السيارات. شعرت هدية بالاطمئنان وانخفض الشعور بالغربة والتغرّب عندها لدرجة كبيرة.

أسكنت أم ياسين هدية معها في البيت الذي تعيش به وحدها، حيث إنّ ابنها الوحيد ياسين قد تزوّج وانتقل ليعيش في منطقة النواب. تذهب أم ياسين مساء كلّ خميس تقريبًا لزيارة الإمامين موسى بن جعفر وحفيده محمد الجواد عليهما السلام. طلبت من هدية أن تصحبها لزيارة الأئمة، فرحت هدية كثيرًا لذلك لشوقها وحنينها للأيام الخوالي، حينما كانت تذهب مع عائلتها لزيارة كربلاء والنجف في مواسم الزيارات، وما إن دخلت الصحن الكاظميّ حتى انفرجت أساريرها وانشرح صدرها وهمّت للوصول إلى مراقد الأئمة، فأمسكت وتمسّكت بالشباك وكأنّها تحتضن والدتها التي تشتاق إليها كثيرًا، وأجهشت بالبكاء الذي استمر دون انقطاع حتى طلبت منها أم ياسين التحرّك لأداء فريضة الصلاة.

معظم العاملات في المشغل من عمْر أمّ ياسين تقريبًا ما عدا هدية، الكلّ أحبّ هدية، وهي أحبّت الجميع، استطاعت هدية هذه المرة أن تجد بديلًا أفضل من عائلتها التي هجرتها مرغمةً لا بإرادتها، ركّزت على دراستها متأملة إنهاء الدراسة الإعداديّة

والتقدم للدراسة الجامعيّة. لم يكن العمل في مشغل أم ياسين مرهقًا لها؛ لأنّهم يصنعون فوطًا وشيلات وعصابات وعباءات للنساء، وهي ملابس تقليديّة تلبسها النساء خاصّة الكبيرات بالسنّ، لأنّها تضفي عليهن حشمة ووقار. وخياطة هذا النوع من الملابس الشعبيّة لا يتطلب الكثير من المهارة، وزبوناتها لسن كهوانم الكرادة والمنصور المدللات اللاتي لا يعجبهنّ العجب.

كانت هدية قد سمعت عن كباب الكاظميّة الشهير حينما كانت تسكن في بغداد، لذا سألت أم ياسين من أين نشتري أحسن كباب؟ قالت لها سآخذك يوم الجمعة إلى مطعم كباب حجي حسين في سوق الاستربادي، ونشتري كبابًا وشريت الاسكنجبيل، ونذهب لصحن أبي الجوادين نأكل الكباب ثم نزور الأئمة، وهذا ما حدث بالفعل، فالكباب مع الخبز الحار والطرشي (مخلل) وخضرة الكُراث والرشاد، كان أطعم كباب أكلته هدية في حياتها.

تغلغل الإيمان والخشوع تدريجيًّا إلى قلبها، وأصبحت زياراتها للروضة الكاظميّة تتكرر مع أمّ ياسين أو من دونها، وتحوّلت هدية من فتاة تبحث عن مغامرات الحبّ والغرام إلى امرأة ملتزمة دينيًّا ومتحفظة في سلوكها ومركزة على دراستها وساعية لتحقيق طموحها في فتح آفاق مستقبليّة واسعة في حياتها.

سوق الإستربادي

في إحدى زياراتها لسوق الإستربادي للتسوق وشراء الكباب والاسكنجبيل، سمعت مناديًا أمام موكب من الأشخاص ينادي بالصلاة على النبيّ ومجموعة من الشبان يرددون الصلوات معه، ووسطهم شاب معمم بعمامة بيضاء تبدو عليه علامات الوقار والاحترام، على الرغم من أن الذين حوله لا يبدو عليهم ذلك. سار الموكب مشيًا في سوق الاستربادي ولاحظت هدية أنّ مجموعة من "وكافة" (مرافقي) الشيخ تبدو عليهم ملامح الأشقياء يدفعون من يأتي أمامهم لتقبيل يد الشيخ. أثناء ذلك يبدو أنّ الحياة قد توقفت في السوق، لا بل كان هناك نوع من الحذر والوجوم على وجوه التجار والمتسوقين.

حال وصولها البيت حكت هدية لأم ياسين ما شاهدته في سوق الإستربادي، لم ترغب الأخيرة بالحديث عن هذا الموضوع، إلّا

أنّها كانت مضطرة لأن توضح لهدية بعض الأمور، قالت لها إنّ المُعمم كان الشيخ محمد الخالصيّ، وهو ابن الشيخ الخالصيّ المشهور محمد مهدي الخالصيّ الذي أبعده الإنكليز بعد ثورة العشرين، ولكن هذا ليس مهمًا، المهم هو أنّه خلق فتنة بين الشيعة بحجة توحيد المسلمين سنة وشيعة، فمثلًا إنّهم حينما ينادون للصلاة في الجامع الصفويّ التابع لهم والمجاور للروضة الكاظميّة، لا يذكرون في الأذان: أشهد أنّ عليًّا وليّ الله، ولا يصلون على التربة، ويحاولون أن يجعلوا ذلك سُنة، ولديهم من الشبان التابعين (فتوة) له يحاولون فرض ذلك على أهالي الكاظميّة. استمعت هدية إلى كلّ ذلك بذهول واستغراب، حيث إنّها تعلم أنّ هناك شيعةً وسُنة، إلّا أنّها لم يكن لديها علم أنّ هناك عدّة فرق عند الشيعة.

وقبل أن تنسى ما شاهدته في سوق الإستربادي، حدث أمر آخر في المدرسة، حيث إنّها وجدت منشورًا في رحلتها الدراسيّة صادرًا عن "الحزب الشيوعيّ العراقيّ" يطالب فيها الزعيم عبد الكريم قاسم بضرورة وقف الحملة العسكريّة التي تشنّها السلطة على الكرد في شمال العراق، الذين تمرّدوا وثاروا مطالبين بحقوق أكثر، ويطالب المنشور بحقن الدماء وتحقيق السلم في شمال العراق، واللجوء إلى المفاوضات. المنشور كان في كلّ الرحلات الدراسيّة لذا بدأ الحديث والحوار بين الطالبات، معظمهنّ كُنّ مُتعاطفات مع ما ذُكر في البيان، إلّا بعض الطالبات التي ادعت إحداهُنّ أن الكرد يريدون الانفصال عن العراق، لذا يجب القضاء على الحركة، ولم يتوقف الحوار إلّا حينما حضرت مدرسة اللغة الإنكليزيّة التي يحترمها الجميع.

لقد أجج هذان الحدثان في سوق الاستربادي وفي ثانويّة الكاظميّة للبنات، أجج فضولًا لدى هدية في التعرف على ما كان يدور حولها، ولا تعلم عنه شيئًا، وتبددت تلك الصورة والانطباع الأوّل من أنّ أهالي الكاظميّة أناس متجانسون ومتشابهون وكلّ شيء حلو وطيّب وجميل، مثل كباب حجي حسين وقيمر المعيديّات (الريفيّات) بباب الدروازة. قالت هدية لنفسها: الأفضل أن أبقى بعيدة عن هذه الأمور كما أوصتني خالتي أم ياسين، وأركز على عملي ودراستي ومستقبلي؛ لأنيّ فتاة وحيدة وبحكم اليتيمة، بلا عائلة أو عشيرة أو معين من قريب أو بعيد.

مكائن أم ياسين

تعطلت إحدى مكائن الغزل في مشغل أم ياسين، ولم يستطع الميكانيكيّ أبو حسين إصلاحها، وعد أبو حسين أم ياسين أنّه سيطلب من ابنه حسين المهندس الميكانيكيّ الذي يعمل في معمل فتاح باشا الشهير، أن يساعده في تصليحها. جاء حسين بعد انتهاء دوامه لتصليح الماكنة، وكان بانتظاره والده وأم ياسين وهدية الملازمة لأم ياسين. حسين شاب في مقتبل العمر، تخرّج قبل سنتين في كليّة الهندسة تخصص ميكانيك، وتعيّن في معمل فتاح باشا مهندس صيانة. جاء حسين كي يساعد والده في تصليح الماكنة، وهذه ليست المرة الأولى؛ لأن مكائن أم ياسين قد أكل الدهر عليها وشرب، إلّا أنه ولأول مرّة يرى فتاة شابة تعمل مع أم ياسين، عرّف نفسه لها كي يتعرّف عليها، غير أنّها كانت مقتضبة في الحديث معه، ومن دون شكّ تذكرت بداياتها مع طارق.

حسين شاب وسيم ومهذب ويتصرف وكأنّه مُعلم مدرسة وليس مهندس ميكانيك؛ لأنّ حديثه ذا نكهة ثقافيّة أكثر منها ميكانيكيّة، هكذا رأته هدية وهذا مجمل الانطباع الذي تركه معها. وكعادته نجح حسين في جعل الماكنة التي كان يجب أن تتقاعد منذ زمن بعيد، تعمل بكلّ جدّ ونشاط من جديد، اقترح حسين على أم ياسين أن يأتي كلّ أسبوع مرّة، حينما يتوفر له الوقت لصيانة مكائنها المستهلكة، وإلّا سوف يصعب تشغيلها مستقبلًا.

من باب المحبّة التي تكنها أم ياسين لهدية، ولأنّها ترى فيها البنت التي لم يرزقها الله بها، فكرت أن حسين شاب مناسب لهدية كزوج، وكي تتحسس موقف هدية، قالت وبصوت مسموع: "خلف الله على أبو علي (حسين)، أبدًا ما يفشلني، دائمًا يساعدنا ويشغل المكائن؛ لأنّ أبوه صار سكراب مثل مكاينا". لم تعلّق هدية على ذلك، وكأن الكلام لا يعنيها، إلّا أنّ أم ياسين كانت مُصممة على فتح الموضوع معها، وسألتها بشكل مباشر، ما رأيك بحسين؟ على الرغم من إحراجها، كان لا بدّ لها من أن تجيب أم ياسين، وكانت إجابتها ذكية، "يبدو عليه أنّه مهندس جيد"، وبدأ الحديث وحاولت أم ياسين أن تستنتج بعض الدلالات، إلّا أنّها لم تفلح لأنّ هدية ختمت الحديث، من أنّها يجب أن تبني مستقبلها؛ لأنّها بلا أهل أو عشيرة، فلا بد أن تركز على دراستها، أيدتها أم ياسين وتمنت لها التوفيق، وتركتها وهي تتمتم بكلمات مُلحنة كأنّها أغنية أو نشيد أو دعاء، لم تستطع هدية فرزها!

لم تتوقف أم ياسين عند هذا الحدّ، فتحت الموضوع بشكل غير مباشر مع أبو حسين، وقالت له: "أريدك تتشكرلي هواية من أبو

علي (حسين)، والله أحبه مثل وليدي ياسين، أكول أبو حسين شفت حسين يعاين على هدية من جوه لي جوه، هم حجالك شي!". تفاجأ أبو حسين من طروحات أم ياسين، وبعد مهلة تفكر، قال لها: "والله يا أم ياسين، وين ألكه أحسن من هدية لابني، لكن يرادلها بَخَت"، "ليش يا أبو حسين؟ ما شاء الله خريج وراتبه زين، وماكو بنيّة ما ترضى بيه". "مو هذا الموضوع حجية، حسين باله مشغول بمسائل متوكل خبز، حجت السياسة وكالت السياسة، كالت أمريكا وحجه الاتحاد السوفيتي. والله خايف لا يوكع ويوكعنه بورطة جبيرة".

اعتقال حسين

لا ندري إن كان حسين قد اقترح زيارات الصيانة كضرورة من الوجهة الفنيّة أم أنّها كانت حجة مشروعة لتكرار زياراته، والتعرّف على هدية أكثر، وفعلًا كان يتصل بأم ياسين ويطلب منها انتظاره بعد الدوام، وطبعًا هدية تبقى مع أم ياسين بالانتظار. بدأ حسين يطلب من هدية أن تساعده في الصيانة، وأثناء ذلك يتحدث معها في مواضيع عامّة، سألته عن الخالصي، فكان جوابه يختلف عن إجابة أم ياسين، حسب رأيه أنّه من المُعممين ذوي العقليّة الرجعيّة الذين يريدون أن يرجعوا المجتمعات إلى العصر الحجريّ، يستغلون الدين ذريعة في السيطرة على عقول الناس وخاصة الجهلة وغير المثقفين. وفي يوم آخر سألته ما الذي يحدث في شمال العراق بين الزعيم والملا مصطفى البارزاني، شرح لها الموضوع أنّ الدستور العراقيّ المؤقت

أقرّ حقوق الكرد القوميّة وجعل العرب والكرد شركاء في الوطن، إلّا أنّ الزعيم تلكأ وتباطأ في تطبيق ذلك، والملا مصطفى البارزاني استعجل ورفع السلاح بوجه السلطة، ونحن مع حقوق الكرد إلّا أنّنا ضد رفع السلاح بوجه السلطة لتحقيقها.

انبهرت هدية من هذا الحديث، وسألت حسين: تقول نحن، من أنتم؟ قال لها: بصراحة هدية أنا أنتمي للحزب الشيوعيّ، وهذا رأي الحزب وأنا أؤمن به، ارتبكت هدية من هذا الكلام، فكلمة "شيوعيّ" كلمة صارخة مخيفة ومبهمة وليس من السهل حتى تلفظها، تدور حول هذه الكلمة حوادث وقصص وأقاويل واتهامات، ومع ذلك هناك هالة من الأسطوريّة والتميّز والاحترام لها.

أحسّت هدية أن حسين شخص مثقف بشكل متميّز ومُطلع ومهتم بكلّ الأمور السياسيّة، إلّا أنّها وبحسها الفطريّ أحست برعشة خوف لمجرد التفكير بالارتباط به؛ لأنّها سمعت الكثير من هنا وهناك أنّ الشيوعيّين كُفار، وأنّهم لا يؤمنون بالزواج! وغير ذلك من الصفات سيّئة الصيت، على الرغم من أنّها لم تجد لذلك أثرًا في سلوك حسين، لذا قررت أن تبتعد عنه قدر الإمكان؛ لأنّه شخص خطر في جميع الحالات.

تغيّب حسين عن الحضور لأسبوعين متواليين على غير عادته، لذا سألت أم ياسين أبا حسين عنه، أجابها بعد أن سحبها على جنب، إنّه موقوف، سألته: لماذا، قال لها: طلع مظاهرات بشارع السعدون ويه جماعته، يطالبون بـ "السلم في كردستان" واعتقله الأمن. "موكتلج يا أم ياسين هذا الولد راح يذبنه بتهلكة، هسه لا

أنته كوردي ولا أبوك كوردي، إشجابك على هذي المصيبة" قالها أبو حسين بقلب مكسور وخائف على ابنه الوحيد.

أجابت أم ياسين أبا حسين بعتاب شديد اللهجة: "هاي بدل ما تفتخر بابنك لأنّه وطني وغيور على مصلحة البلد، ومناهض للحروب! وليش الأكراد مو عراقيين! يعني الله يرضى لأنّه طالبوا ببعض الحقوق المشروعة، يذبون عليهم قنابل!" استغرب أبو حسين من ردة فعل أم ياسين، وظلّ فمه مفتوحًا ولم يحاول إجابتها.

سمعت هدية جزءًا من الحديث، وحينما ذهبت إلى البيت سألت أم ياسين عن البقية، وتعرّفت على كامل القصة، على الرغم من خوفها منه إلّا أنّ هذا الحادث زرع بذرة الرومانسيّة القلقة على مصير حسين الذي هو ليس أخًا أو حبيبًا، رومانسيّة التفكير بالآخر الذي لا تستطيع أن تصل إليه، والذي ربما يتعرض لاضطهاد أو تعسف أو تعذيب، كيف يعيش الموقوف السياسيّ في هذا العهد، ثم سألت هدية نفسها، كيف يعتقله الزعيم! ألا يعلم أنّ حسين وجماعته ضد رفع السلاح بوجه السلطة الوطنيّة والزعيم! هل من المعقول أن يعتقل الزعيم أنصاره ومحبيه! تساءلت هدية بصوت عالٍ، ولم تحصل على إجابة محددة من أم ياسين، التي ابتعدت عنها وهي تُتمتم نفس اللحن دون أن تميّز الكلمات.

تمّ إطلاق سراح حسين بكفالة بعد أربعين يومًا من اعتقاله، على أن يمثل أمام المجلس العرفيّ الثاني ضمن قانون الأحكام العرفيّة الذي ما زال ساري المفعول على الرغم من مرور ثلاث سنوات

على ثورة الرابع عشر من تموز من عام ثمانية وخمسين وتسعمئة وألف. زفّ الخبر أبو حسين لأم ياسين بصوت عالٍ كي يسمعه كلّ العاملين في المشغل، وكان بيده صندوق حلويات يوزعه بفرح كأنّه يزف ابنه في ليلة عرسه. أمّا هدية فقد انتابها شعور وانفعالات رهيبة، ودون دراية من أمرها أحسّت أن عينيها انغمرتا بالدموع، فانسحبت إلى زاوية في إحدى الغرف الخلفية، وأجهشت بالبكاء، بكاء لم تستطع هدية أن تفهمه أول وهلة، كأنّها دموع أم بعودة ابنها من الحرب حيًّا، أو أم غريق يُنقذ ابنها من موت مُحقق، أو ربما عودة حبيب كانت العيون قد ألفت لقياهُ بين الحين والحين، عودة الحبيب من الغيبة التي سبقت إفصاح المشاعر بين اثنين تصورا أنّ الحياة دائمة للأبد ولا عُجالة في البوح بالمشاعر، وإن كانت تلجُ في أعماق الصدر، وهي في مخدعها، سمعت هدية هلاهل أم ياسين وفرحتها، وطلبت من إحدى العاملات أن تذهب للبقال كي تأتي بشربت (عصير) برتقال لاستكمال الفرحة، أحسّت أم ياسين باختباء هدية ولحقت بها بعد أن منحتها فرصة إفراغ شحنات العواطف والشجون من صدرها المكتوم، تعالي يا بنيتي نحتفل فإنّ حسين حبيبنا كلنا.

لم يدع حسين الوقت يمضيّ وعاجل بالذهاب إلى مشغل أم ياسين للتأكد من أن مكائنها ما زالت على قيد الحياة! استقبلته أم ياسين بالهلاهل واحتضنته وكأنّها تحتضن ابنها ياسين، وأخذت تبعثر كلمات هنا وهناك معربة عن فرحتها بالإفراج عنه، ومعاتبةً الزعيم الذي اعتقله، وقالت له: "يمه حسوني يفداك مَنْ راعك، العراق بخير ما طول بي نشامه وطنيين مثلك!" استغرب والد حسين وبعض المتبقين من العاملات في المشغل من حماس

وانفعال أم ياسين في استقبالها لحسين. أمّا هدية فإنّها كانت في حالة من الذهول والارتباك، ولا تعرف حتى ما تقول له، واخيرًا نطقت بصوت خافت خجول: الحمد الله على السلامة أبو علي! نظر إليها حسين ولمعة في عينيه يصعب إخفاؤها: "شكرًا هدية، جانت إجازة من الشغل ريحتنا من فتاح باشا، ومن زنجار مكاين أم ياسين!" بعدها ضحك الجميع، ووعد حسين أم ياسين، وعينه باتجاه هدية، بأنّه سيزورها قريبًا لصيانة المكائن.

ولم يكذّب حسين الخبر، أصبح زائرًا معتادًا لورشة أم ياسين، واقترح أن تكون هدية مساعدته كي تستطيع بالمستقبل القيام بمهمة الصيانة بنفسها، لم يعترض أحد على ذلك، إلّا أنّ أم ياسين على الرغم من محبّتها لحسين تعدّ هدية أمانة عندها، لذا كانت تراقب عن كثب، وكانت تحسسهم بوجودها على الرغم من أنّها كانت تتظاهر بانشغالها بأمور أخرى في المشغل.

أتيحت لحسين وهدية فرصة التحدث عن أمور عدّة في أثناء انشغالهم بصيانة المكائن، وكأنّهم يشكرون هذه المكائن لأنّه لولاها لما كان اللقاء، طبعًا حاول حسين أن يعرف قصّتها ولماذا هي في الكاظميّة مقطوعة الشجرة! إلّا أنّ هدية لم تعتقد أنّ الوقت قد حان كي تخبره القصّة بأكملها، طلب منها أن يلتقي بها أيام الجُمع، تحججت أنّ أم ياسين لا تسمح لها بذلك.

لم يبادر حسين بفتح أيّة مواضيع سياسيّة مع هدية، إلّا أنّ الفضول كاد يأكلها؛ لأنّها تريد أن تتعرف أكثر على هذا الشيء المخيف والمربك والذي تدور حوله إشاعات وقصص وأخبار معظمها مغلف بهالة من الغموض والرهبة مع تميّز واضح في

انقسام الناس حوله. كلمة شيوعيّ وشيوعيّة واشتراكيّة وصراع طبقيّ، ومساواة وأمميّة، وغير ذلك الكثير من المصطلحات التي لا يستخدمها غير الشيوعيّين وكأنها محرمة على العامّة.

جلسات أم ياسين

لاحظت هدية أنّ أم ياسين تعقد ما يسمى بقبول نسوان (جلسة نسائيّة) مرّة كلّ شهر في بيتها، يتجمعن في حوش (بهو) البيت، إلّا أنّهن بعد المجاملات وشرب الشاي والكعك والكليجة، يختلين في غرفة الضيوف ويغلقن الباب عليهن، ويتحوّل حديثهن من كونه عالي الصوت إلى منخفض، ومن فوضى الحديث إلى شخص واحد يتحدث وتستمع له الأخريات. كذلك لاحظت هدية أنّ قسمًا من تلك النساء سافرات ولسن من نفس محلة أم النوميّ، ولا يبدو عليهن أنّهن كظماويّات من حيث الشكل والمظهر، وعلى الرغم من أنّها لم تبالِ كثيرًا في بادئ الأمر، إلّا أنّها كانت تقول لنفسها، لماذا يستبعدوني حينما يختلون في غرفة الضيوف، وزاد استغرابها حينما سمعتهن يرددن بعض الأغاني المشابهة لما تدندن به أحيانًا أم ياسين.

طلب حسين من هدية أنّ يلتقي معها يوم الجمعة في منتزه 14 تموز، الذي افتتحه الزعيم عبد الكريم قاسم مؤخرًا، والذي يقع في شارع المحيط قرب جسر الأئمة، كانت هدية متهيأة لمثل هذا الطلب هذه المرّة، وقالت له إنّها لا تستطيع الخروج من البيت دون إذن من أم ياسين؛ لأنّها بمثابة أم لها، ولا تستطيع أن تتخطاها، استغرب وتفاجأ حسين من هذا الجواب الذكيّ والمحرج، فما كان عليه إلّا أن يجيبها أنّه كان سيفعل ذلك؛ لأنّ نيّته حسنة وهو لا يريد أن يقوم بأيّ خطوة دون علم أم ياسين أو والده.

انفرد حسين بأم ياسين وطلب منها بكلّ أدب واحترام أن تسمح له أن يصطحب هدية للمنتزه يوم الجمعة، وقبل أن تجيبه، سألته عن السبب والقصد من وراء النزهة، على الرغم من أنّها تعلم السبب من خلال مراقبتهما بشكل غير مباشر، تلعثم حسين قليلًا، إلّا أنّه عبّر لها بارتباك واضح أنّه معجب بهدية، ويريد أن يتعرّف عليها ويُعرّفها عن نفسه أكثر. سألته ما إذا كانت هدية قد وافقت على طلبه، قال لها كلا، إلّا أنّها تركت الأمر لكِ، كبُرت هدية في عينيّ أم ياسين كثيرًا، وأحسّت بمشاعر أمومة تجاهها، وقالت له: "يمه حسين أنت تعرف كلش زين آنه أعزك مثل ياسين وأبوك عشرة عُمر، وآني أوثق بيك، وهدية مثل بنتي ولو كان عندي عدة بنات لكانت هدية أعزهم، إذا تحلف لي بجاه موسى الكاظم تصونها مثل أختك إلى أن يحصل نصيب، أسلمك الأمانة، شنو رأيك؟" ومن دون تردد أجابها حسين: "خالة أم ياسين، وداعت والدي أحلف أن أصون هدية مثل ما أصون عرضي والإمام موسى الكاظم شاهد على ما أقول".

جلست أم ياسين مع هدية كعادتهما لتناول العشاء بعد يوم العمل الطويل، بادرت أم ياسين بسؤال هدية: "يمة شنو رأيج بحسين، بيانه يحبج وطلب مني أسمحله تطلعون تتمشون بالمنتزه، شتكولين؟" استحت هدية، ولكن كان لا بدّ لها من أن تجيب: "والله خالة أنتِ مثل أمي والراي رايج، وآني من سألني كتله، الجواب تأخذه من خالتي أم ياسين". مدحت أم ياسين بحسين وأبيه كثيرًا، وقالت لها: "المهم لا بأس تروحون للمنتزه أو للسينما، ولكن المهم أنه تبقين بمكان عام، لأن إذا اختلوا اثنين كان الشيطان ثالثهم".

منتزه 14 تموز

كانت هذه أوّل مرّة تذهب هدية لمنتزه 14 تموز، انفرجت أساريرها كلّها، مثل طفلة في يوم عيد رمضان، وفعلًا ذكّرها ذلك بالأفراح الطفوليّة البسيطة والتي كانت فيها العيديّة أم الربع دينار توصل الطفل لسعف النخل العالي ابتهاجًا. مرّ أمامهم بائع الدوندرمة (الآيس كريم)، وهو يقرع جرس دراجته الهوائيّة وينادي: "لكي ستك، على الكهرباء"، عزم حسين هدية على اللكي ستك المشهور، اختار هو الأبيض واختارت هي الأزبري (الأحمر). جلسوا على إحدى مقاعد المنتزه تحت ظل شجرة يوكالبتوس شاهقة الارتفاع.

لم يستطع حسين أن يفتح أيّ حديث مع هدية، ربما لخجله أو لقلة خبرته أو لأنّه لا يعرف من أين يبدأ، وأخيرًا تحدّث عن مكائن أم ياسين: "تعرفين هدية، ترى مكاين أم ياسين دا أشغله

بالشافعات، أخاف راح يجي يوم وكلّ مكاينها توكف، وما أعتقدها تكدر تشتري مكاين جديدة". سألته ما الذي يقترح عليها؟ أجابها بأنّ الزمان قد تغيّر، وهذه المكائن لم تعد اقتصاديّة؛ لأنّها من الناحية الفنيّة متقادمة أيّ منتهية الصلاحيّة، ولولا قوانين الحماية للصناعة الوطنيّة لما استطاعت أم ياسين وغيرها من أصحاب المشاغل الصغيرة الاستمرار في العمل ومنافسة البضاعة المستوردة من الصين واليابان. لم تتوقف هدية وسألته مرّة أخرى، مع ذلك ما هو الحلّ العمليّ لأم ياسين لأنك أخفتني الآن؟ لا داعي للخوف، ولكن لا بدّ من التخطيط للمستقبل، فمثلًا بدلًا من أن تقوم بالعمليّة من الألف للياء، عليها أن تتجنب بعض مراحل الإنتاج، أي أنّها بدلًا من أن تشتري الصوف لتغزل الخيوط، تشتري الخيوط جاهزة، وبدلًا من أن تحوك الخيوط لتحوّلها إلى قماش، تشتري قماشًا جاهزًا وتقوم بعمليّة التفصيل والخياطة، وأردف قائلًا: هدية، المجتمعات تتطور والحياة تتغير، ولكن يجب أن يكون للإنسان دور في توجيه التغيير كي يكون نحو الأحسن، أحست هدية أن حسين حوّل الموضوع إلى سياسة، إلّا أنّها لم تقاطعه وإنّما أبدت اهتمامًا كي تشجعه على الاستمرار.

رجعت هدية إلى البيت وتجنبت أم ياسين لأنّها تعلم أنّها سوف تسألها عن اللقاء، لذا اختلت في غرفتها وبدت عليها علامات الارتياح من أنّ لها معجبين، ولم تستطع تجنب المقارنة بين طارق وحسين، إلّا أنّها لم تجد أيّ وجه للمقارنة، شخصيّة وثقافة واهتمامات الاثنين مختلفة جدًا، كلّ الذي استطاعت أن

تميّز بين الاثنين أنّها انجذبت لطارق بمشاعرها العاطفيّة، بينما تقبُلها لحسين كان عقليًّا أكثر من كونه غريزيًّا.

تكررت اللقاءات بين حسين وهدية، وتجاوز الاثنان مرحلة الارتباك والاستغراب بينهما، إلّا أنّه مع ذلك لم تتحول العلاقة من صداقة لعلاقة عاطفيّة حميمة، هناك تردد من قبل الطرفين لأخذ المبادرة بالخطوة الأولى، بالنسبة لحسين لا يريد أن يكسر ما تعهد به لأم ياسين، وبالنسبة لهدية تعتقد أنّ الرجل عليه دور المبادرة وليست المرأة، ومع ذلك لديها هاجس من خلال تجربتها السريعة مع طارق، لذا فضّلت إبقاء الأمور كما هي.

التفكير بالزواج

لدى حسين مسؤوليّة حزبيّة قياديّة، وبالتالي لا يمكنه الزواج إلّا من فتاة تؤمن بمسيرة الحزب الذي ينتمي إليه، لذا كان يحاول أن يستغل كلّ مناسبة كي يُغذيها بأفكاره، إلّا أنّها على الرغم من كونها مستمعة جيّدة لم تجد نفسها مندفعة باهتمام كافٍ للسياسة ولم تتصور نفسها بعد، امرأة تحمل راية حمراء وتهتف وسط الجماهير:

سنمضي سنمضي إلى ما نريد وطنٌ حُرٌّ وشعب سعيد

أحسّ حسين بعدم اهتمام هدية بالسياسة، لذا تحدّث مع أم ياسين، وقال لها لماذا لا تقنعين هدية بالانضمام للحزب؟ سألته ما الذي يدعوه لطلب ذلك، أجابها بأنّه لن يستطيع أن يتزوجها

ما لم تكن منتمية للحزب ولو كصديقة، وليس بالضرورة أن تكون عضوة منتسبة.

بدأ اهتمام أم ياسين بالسياسة بعد زواجها من أبي ياسين الذي كان عريفًا في الجيش، والذي استشهد في حرب فلسطين عام 1948 التي انتهت بوقف إطلاق النار وقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، وجدت أم ياسين في الحزب الشيوعيّ العراقيّ الذي كان من أنشط الأحزاب السياسيّة في تلك الحقبة في العهد الملكيّ، مدافعًا نشطًا عن المظلومين، ومناهضًا بضراوة لسلطة نوري باشا السعيد المتواطئة مع الإنكليز بقبول وقف إطلاق النار الذي يُعدّ ضمنيًّا القرار بالهزيمة وقبول تقسيم فلسطين، لذا فهي تعدّ أن استشهاد زوجها كان نتيجة خيانة الملوك ورؤساء تلك الحقبة، وأن دماء الشهداء ذهبت هباء.

لم يكن حسين مناصرًا ومحبًّا للحزب وإنما كان قياديًّا في مدينة الكاظميّة التي كانت تعدّ مدينة مغلقة للنفوذ الشيوعيّ ما عدا تجمع الخالصيّ. الذي يعدّ محدودًا ومحصورًا في إحدى محلات الكاظميّة، ولم يكن هناك وجود يُذكر للبعثيّين أو القوميّين. لذا ضمن مسؤوليّات حسين أن تكون زوجته رفيقة دربه أيضًا ومنتظمة حزبيًّا، لأنّ بيته سيكون بلا شكّ من بيوت الحزب الذي يضمّ أسرارها باعتباره حزبًا غير مجاز ونشاطه سريّ وأعضاؤه معرضون للاضطهاد بجميع أشكاله وصوره، وفي كلّ الأوقات.

عيد المرأة العالميّ

تحتفل أم ياسين كلّ عام مع رفيقاتها في رابطة المرأة العراقيّة بيوم المرأة العالميّ الذي يُصادف الثامن من آذار من كلّ عام، وشهد عام 1959 وعام 1960 احتفالات ضخمة ومسيرات في شارع الرشيد للاحتفال بهذا اليوم وبمشاركة فعليّة من قبل الحكومة بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي عيّن رئيسة الرابطة الدكتورة نزيهة الدليميّ وزيرة للبلديّات وهي أوّل امرأة تشغل منصب وزير في العراق وفي العالم العربيّ. إلّا أنّه بعد ما سُمي بالانتكاسة والجفاء الحادّ بين الشيوعيّين والزعيم، تحوّلت هذه الاحتفالات إلى نشاط شبه سريّ، في البيوت وبين الشيوعيّات الرابطيّات وأصدقائهم وأهاليهم.

لـذا قـررت أم ياسـين دعـوة العـاملات في مشـغلها وكـذلك هديـة للمشـاركة بهـذا الاحتفـال خاصّـة وهي تسـكن في دارهـا وكخطـوة أوليّة وتجريبيّة لكسبها للانضمام للحزب، رحّبت هدية بالفكرة خاصّة وهي امرأة مظلومة من قبل أهلها ومجتمعها الذي ما انفك يؤمن بعادات وتقاليد بالية مهينة لكيان المرأة. صادف أن يكون 8 آذار يوم المرأة عام 1962 في يوم الخميس، لذا دعت أم ياسين كلّ العـاملات في مشـغلها إلى بيتهـا عصرًا للاحتفـال بـذلك اليـوم ومنحتهم ذلك اليوم عطلة مدفوعة الأجر.

كان يومًا ربيعيًّا جميلًا بمناخـه، حضّرت فيـه أم ياسـين البيـت بمساعدة هدية، كنسا الحوش ورشاه بالماء واستأجرا كراسي من مـنظم حفـلات قـرب سـاحة الزهـراء، وجهـزا تشـكيلة مـن عصـير البرتقـال وحلويـات ومعجنـات مثل الكعـك والكليجـة. كـذلك زيّنـا الحوش ببالونات ملونة ابتهاجًا للاحتفال بيومهم العالميّ.

قـدِمت العـاملات الواحـدة بعـد الأخـرى، بملابـس زاهيـة ليسـت كملابـس العمـل وإنمـا بملابـس كـأنهنّ يحضرن ليلـة حنّـة زواج إحدى القريبات، وكلّ واحدة منهنّ تحمل شيئًا ما للمشاركة مثل قالب كيك أو قدر دولمة أو كيس خبز لحم، وغير ذلك مما هـو معتاد عليه في المناسبات.

كانـت جلسـة بـين سـيدات يعـرفن بعضـهن الـبعض، يـأكلن عـلى راحـتهن ويسـتمعن لراديو ترانسيسـتور لأغانٍ شائعة لعبد الحليم حافظ وناظم الغزاليّ، ويغنين ويمزحن دون اكتراث، إلى أن جاءت الوجبـة الثانيـة مـن الزائـرات مـن صـديقات أم ياسـين مـن خـارج المشـغل، وقسـم مـنهن لسـن مـن سـكنة الكاظميّـة، مـع ذلـك تـمّ

الاختلاط والاندماج بعد برهة من التعارف والمجاملات المربكة أحيانًا.

المهم، بعد أن أكل الجميع وشربوا أنواع العصائر والشرابت، استرعت أم ياسين انتباه الحاضرات لأهميّة هذا اليوم للمرأة العراقيّة التي تعاني من التخلف والاضطهاد الاجتماعيّ، ثم قدمت إحدى مسؤولات رابطة المرأة العراقيّة لتلقي كلمة بالمناسبة. كلمة الرفيقة طيّرت "النشعة" كما يقولون؛ لأنّها كانت جادة وسياسيّة مُذكرة الحاضرات بالظلم الذي تتعرض له المرأة في العراق وفي العالم ولكفاح المرأة في العالم وفي العراق ودور الرابطة والدكتورة نزيهة الدليميّ في تشريع قانون الأحوال الشخصيّة رقم 188 لسنة 1959، الذي تضمّن حماية لحقوق المرأة في الزواج والطلاق والإرث. صفّق البعض بحماس وصفّق الآخرون مجاملة لأنهنّ لسن من المنتميات أو المهتمات بالسياسة، أمّا هدية فإنّها استمعت بتركيز، مفكرة بالظلم الاجتماعيّ الذي تعرّضت له من قبل عائلتها، متمنيةً ومتسائلة، لو أنّ أهلها يحملون مثل هذه الأفكار لما صار الذي صار.

بعد ذلك بدأ دور الأغاني العراقيّة الشعبيّة لصديقة الملاية وسليمة مراد مثل أغنية الأفنديّ: الله خلي صبري صندوق أمين البصرة، وأغنية افراكم بجاني، وأغنية خدري الجاي خدري، عيونيّ لمن أخدره، إلى أن استأذنت أم ياسين الأخوات لتقدم أغنية "مكبعة ورحت امشي يُمه" من قبل أم ياسين واثنتين من الرابطيات معها، لبسن العباءات وبيدهن أوراق تمثل المناشير السريّة التي يوزعها الحزب بين البيوت وفي الأزقة الشعبيّة، وبدأن بالإنشاد، مع الرفيقات الرابطيّات:

مكبعة ورحت أمشي يُمه بالدرابيــن الفقيرة

يُمه يُمه

وسط فَيْ وشمس يُمه وآنه من ديره اعلى ديره

يُمه يُمه

وزعت كـلّ المناشير كلّ المناشير وخبرهـم

ومن مشيت عيوني ما تيهت دربهم

يُمه يُمه

سلمتهم يُمه يُمه آخر أعداد الجريدة

سلمتهم

مكبعة ورحــت أمشي يُمه

بلغتهم باجر الحيطان تحجي بالشعار اللي نريده

بلغتهم

بلغتهم باجر الما يدري يدري يهتف وينشر قصيدة

بلغتهم

باجر عيون الرفاكه تصير كمره

تضوي يُمه

باجر زنود الرفاكه، زنود سمره

تلالي يُمه

تنوّر الدنيا لشعبنا

وتعتلي راية حزبنا

مكبعة وكلييي عِدهم

يُمه

مكبعة وعيني لدربهم

يُمه

مكبعة ورحت أمشي

يُمه

مكبعة ورحت أمشي

يُمه

تذكرت هدية النغمة التي ترددها أم ياسين دائمًا والتي هي لحن هذا النشيد أو الأغنية أو الترانيم لا تعرف كيف تسميها، على الرغم من أنّ مفهومها أصبح معروفًا للحضور غير الرابطيّات اللاتي معظمهن ذوات صلة بمناضلات ومناضلين، لأنّ مدينة الكاظميّة وخاصّة أحياءها الشعبيّة كانت بيئة يساريّة شبه مغلقة في نهاية خمسينيّات وبدايات الستينيّات من القرن العشرين.

كانت أم ياسين تراقب هدية عن كثب، تتابع انفعالاتها ومدى تقبّلها وانسجامها مع فكرة أنّ المرأة يمكن أن يكون لها دور سياسيّ وإيجابيّ في المجتمع من أجل تطويره، ومع أنّ الحزب يسعى من حيث الأساس لرفع المستوى الاقتصاديّ للكادحين بشكل رئيس، إلّا أنّ ذلك من الصعب تحقيقه دون رفع المستوى الثقافيّ في المجتمع وتحرير المرأة من آثام المجتمع الرجوليّ المتحكم دون رحمة في مجريات حياتهم وطموحاتهم الشخصيّة. كانت هدية منسجمة لحدّ كبير اجتماعيًّا في الجلسة، إلّا أنّ أم ياسين لم تكن متأكدة من وجود أيّ حماس سياسيّ لديها.

الصراع العقائديّ

على الرغم من أنّ الحزب الشيوعيّ العراقيّ ليس من أقدم الأحزاب الشيوعيّة في الوطن العربيّ أو الشرق الأوسط، إلّا أنّه كان الأكثر عددًا بالنسبة لحجم السكان، والأكثر نشاطًا على جميع المستويات، حيث استطاع – مع وجود القمع المستمر الذي يتعرض له – أن يُكوّن كادرًا عماليًّا قياديًّا، وكادرًا فلاحيًّا خاصةً في الفرات الأوسط وجنوب العراق، أمّا نفوذه في الطبقة المثقفة فقد كان لا منافس له، فمعظم الأدباء والشعراء والملحنين والمغنين والرسامين والنحاتين والمعلمين كانوا إمّا منتسبين للحزب أو أصدقاء له او متآزرين معه أو مستقلين ذوي ميول يساريّة، أمّا الطلبة فكانوا من أنشط الفئات جماهيريًّا سواء في الجامعات والمعاهد أو في ثانويّات عموم القطر، والتاريخ يشهد لهم في الانتفاضات العديدة في العهد الملكيّ والعهد الجمهوريّ.

حينما برز الخلاف العقائديّ بين السوفييت والصينيّين، تمسك الحزب في العراق بالتوجه السوفيتيّ الجديد مقتنعًا من أنّ التعايش السلميّ والمنافسة السلميّة مع الغرب هي التوجه الأمثل، وأنّ الثوريّة في غير محلها تعدّ تطرفًا يساريًّا، أو كما سُميت مرض الطفولة اليساريّ، وأنّ البقاء على المدرسة القديمة للتفكير اليساريّ يعدّ جمودًا عقائديًّا. قاد هذا التوجه عام 1956 في الاتحاد السوفيتيّ نيكيتا خروتشوف، الذي أعلن ذلك في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعيّ السوفيتيّ، والذي أدان فيه في نفس الوقت انفراد ستالين بالسلطة، وإبعاده للكثير من القياديّين لا بل إعدام العديد منهم ضمن حملة تلفيق أخبار ضدّهم قادها مسؤول المخابرات ووزير داخليّة ستالين لافرنتي بيريا، الذي ثبّت لاحقًا أنّه يعمل لحساب الغرب.

ومن بين الأركان المهمة لهذه العقيدة الجديدة أنّ الاتحاد السوفيتيّ والمنظومة الاشتراكيّة تسعى لتأييد حركة التحرر الوطنيّ التي يقودها زعماء يتسمون بالحياديّة، مناهضون للاستعمار، مستعدون للتبادل التجاريّ مع الاتحاد السوفيتيّ. ليس هذا فحسب، وإنّما هذه العقيدة تضمنت الطلب من الأحزاب الشيوعيّة إسناد هذه الحركات وزعمائها، حتى وإن لم يكن لهم دور قياديّ بها، لا بل حتى وإن كانوا خارج السلطة. أمّا مفهوم الثوريّة والوصول إلى الحكم عن طريق الشرعيّة الثوريّة فقد أصبح شبه مُحرّم ومن فعل الماضي، ولم يبقَ منه سوى الاحتفال بذكرى ثورة أكتوبر الروسيّة لعام 1917.

هذه التوجهات وغيرها، أبعدت، لا بل ألغت التفكير باستلام السلطة من قبل الحزب حتى وإن كانت ممكنة ويسيرة، لذا ركز

الحزب كلّ طاقته لتأييد الزعيم عبد الكريم قاسم ومنحه لقب الزعيم الأوحد، والمساهمة والمطالبة بتشريع قوانين تقدمية مثل قانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958 وقانون الأحوال الشخصيّة رقم 188 لسنة 1958. إلّا أنّ الزعيم عبد الكريم قاسم أحسّ بسعة نفوذ الحزب وسيطرته على المنظمات الشعبيّة والمهنيّة وبعض مفاصل الدولة، لذا قرر تحجيم دورهم مستغلًا أحداث الموصل وكركوك المؤسفة وتحميلهم مسؤوليّتها.

إنّ عموم الحزبيّين مثقفون ثقافة كافية كي يفكر كلّ منهم كقائد، أو بمعنى أصح أن يكون له رأي في مسار وسياسات الحزب، لذا فإنّ إيغال حليف الأمس الزعيم عبد الكريم قاسم باضطهادهم وتهميش دورهم في بناء المجتمع الجمهوريّ الجديد، لم يرق للكثيرين منهم، وأخذ أكثر الرفاق يتساءلون عن الحكمة في تأييد زعيم يضطهدهم باستمرار، ويبعدهم عن السلطة بشكل ممنهج، ويُسلم إدارة الدولة لقوى رجعيّة ومتآمرة على الثورة وعليه شخصيًّا. وعلى الرغم من أنّه أجاز تأسيس الأحزاب السياسيّة إلّا أنّه لم يمنح الحزب الشيوعيّ الذي سخّر كلّ قواه لتأييد الثورة وزعيمها وحماية مكاسبها التقدميّة، رغم استجابتهم لكلّ المتطلبات ولعدّة مرات وتحت عدّة مُسميات، وتمّ منح رخصة التأسيس لحزب شيوعيّ وهميّ مفتعل بقيادة داود الصائغ كبديل لهم.

بالنسبة للعديد من الرفاق كانت هناك مؤشرات وتحليلات ثوريّة تدعو لاستلام السلطة من الزعيم لاستكمال المسيرة الثوريّة، إلّا أن القيادة كانت ملتزمة بشكل ثابت بالنهج السوفيتيّ الذي منع به استلام السلطة من قبل الشيوعيّين والبقاء في خندق تأييد

السلطة الوطنيّة إذا كانت مناهضة للغرب وذات علاقة جيّدة بالاتحاد السوفييتيّ ودول شرق أوروبا.

لقد استهلك الحزب طاقة هائلة في تثقيف رفاقه ومؤيديهم بتفهم منهجيّة التعايش السلميّ، التي ربما كانت مناسبة جدًا لأحزاب أوروبا الغربية؛ لأنها لا تعيش تحت معول الاضطهاد، وإن وسائل النضال السلميّ مكفولة ومُصانة دستوريًّا وتطبيقيًّا، لكن ذلك لا ينطبق على الأحزاب اليساريّة في العالم الثالث مثل العراق ومصر.وسوريا وإيران، حيث إنّ اضطهاد الشيوعيّين أسهل من محاسبة المجرمين العاديّين.

معظم الرفاق يحبّون حزبهم، وولاؤهم لا تردد أو تساؤل فيه، إلّا أنّ بعض الرفاق تحدثوا وأعلنوا عن رأيهم الذي يتضمن عدم مؤازرة الزعيم والمطالبة بالسيطرة على الحكم قبل أن يسيطر عليه البعثيّون الذين كانوا يبذلون أقصى جهدهم للتآمر على الثورة وتصفية اليسار العراقيّ. معظم هؤلاء الرفاق تمّ فصلهم من الحزب أو آثروا أن يتركوه طواعية، والكثير من الرفاق ظلّوا مؤازرين للحزب على الرغم من اختلافهم معه، ومن هؤلاء المهندس حسين والشاعر الشعبيّ مُظفر النواب، اللذين كانا يتمتعان بصفات ثوريّة ومتأثرين بالتجربة الكوبيّة الجديدة بقيادة فيديل كاسترو وتشي جيفارا.

المصارحة

نقلت أم ياسين أخبار الاحتفال بالتفصيل إلى حسين دون زيادة أو نقصان، وفي النهاية قالت له إنّ هدية فتاة قويّة، لا تغيّر مسيرة حياتها بجلسة سمر وكيك وعصير برتقال، إلّا أنّها فتاة وستكون امرأة قوية يُعتمد عليها، فلا تضغط عليها ولا تخسرها.

التقى حسين مرّة أخرى بهدية وقال لها قبل اللقاء إنّه يريد أن يحدثها بموضوع مهم جدًا، ذهبا معًا إلى مكانهما المفضل منتزه 14 تموز الكاظميّة، وجلسا تحت ظلّ شجرة اليوكالبتوس التي أصبحت وكأنّها المأوى الذي يركنون إليه في السرّاء والضرّاء، وبمجرد جلوسهما قال لها حسين: هدية آني شاب ملتزم بالحياة، ولا أحبّ أن ألعب دور المراهقين إلى الأبد، وكما تعرفين وشرحت لكِ ذلك بشكل وآخر أنّي معجبٌ جدًا بك وأودّ أن أطوّر علاقتنا بالطريقة الصحيحة، وهي الخطوبة والزواج إن كان لديك نفس

الشعور والرغبة، إلّا أنّني لا أستطيع أن أقدم على هذه الخطوة دون معرفة تفاصيل من هي هدية ومن هم أهلها ولماذا هي في الكاظميّة وحيدة؟ والكثير من التفاصيل التي أتمنى أن تثقي بي كأخ وصديق وحبيب، وأسرار حياتك ستكون من أسراري سواء اتفقنا أو لم نتفق.

على الرغم من أن هدية كانت متوقعة ومنتظرة لهذه اللحظة، إلّا أنّها لم تستطع أن تهيأ نفسها للمواجهة، مع ذلك لملمت هدية نفسها، وقالت له: أبو علي أنت تعرف كلش زين آني أثق بيك وبأم ياسين، وحاليًا أنتم أصدقائي وأهلي وحُماتي، لذا سأخبرك بكلّ التفاصيل كي أزيحها عن صدري المكبوت، وفعلاً حدثته بكلّ التفاصيل وأسباب هروبها من عين التمر، مرورًا بتجربتها في شارع النهر، مع ذكر علاقتها مع ابن صاحب العمل طارق، دون التعمق في تفاصيل العلاقة ومداها.

شكرها حسين كثيرًا بعد أن أنصت إليها وهي تحكي قصّتها بصوت مبحوح وبعيون حمراء طافحة بالدموع، وكأنّها تندب حظّها الذي ضيّق الخناق عليها. تعاطف حسين كثيراً مع مأساة هدية، وطلب منها ان تثق به موضحاً لها ان للحزب رفاق في كلّ المدن، وأنهِا لم تقم بأيّ عمل مُشين لشرفها أو شرف عائلتها، موضحاً انه يمكنهم الاتصال برفاقهم في عين التمر كي يسألوا عن عائلتها، وربما نجدوا خيطًا رفيعًا يمهد للاتصال بعائلتها وعودة الأمور كما كانت أو أفضل. رفضت هدية الفكرة كليًّا وقالت له هكذا سيصلون لي ويقتلوني، أكد لها حسين أنّهما لن يكونا في الصورة إلّا إذا وصلا إلى نقطة الأمان.

فاتح حسين مسؤوله الحزبيّ بالموضوع، طالبًا التعامل بالموضوع بمنتهى السريّة بالسؤال عن العائلة فقط، انحدارها الطبقيّ، مصدر رزقها، سكنها، ميولها السياسيّ، تحصيل أفرادها العلميّ والثقافيّ، وهل هناك من في العائلة له علاقة بالحزب؟ وفعلًا جرى الاتصال بمحليّة كربلاء التي بدورها حوّلت الموضوع إلى محليّة عين التمر التي لها نفوذ للحزب يُذكر.

لم يكن لوالد هدية أيّ صلة بالحزب، إنّه عامل بناء يعمل بأجور يوميّة والعمل ليس دائميًّا، مع ذلك وفي موسم حصاد التمور يعمل في البساتين حوالي شهرين على الأقل في السنة. إخوة هدية أصغر منها وما زالوا في أعمار من الصعب أن يكون لهم دور فعّال في حلّ المشكلة، إلّا أنّ خالها أمين مكتبة الإدارة المحليّة في عين التمر شخص مثقف ومن الذين انتسبوا للحزب بعد الثورة.

تذكر مسؤول محليّة عين التمر حادثة هروب هدية قبل سنوات وكيف أنّها انتشرت في مدينة صغيرة كمدينة شفاثه. من المؤكد أحسّ أهلها بالعار؛ لأنّ الهروب من الزواج يمكن تفسيره شمالًا وجنوبًا، التفسير الأقرب للتصوّر أنّها تُحبّ شخصًا آخر وهربت معه، إلّا أنّ هذا التفسير ألغيّ تمامًا وذلك لعدم هروب أو اختفاء شابّ بنفس تلك الفترة، وهذا ينقل التفسير إلى تصوّر أخبث، وهو أنّها ليست عذراء ولا تريد أن يُكتشف أمرها في ليلة الدُخلة، أمّا التفسير الحقيقيّ وهو أنّها لم تقبل أن تتزوج من رجل بعمر والدها، فإنّه لم يخطر على بال حتى عائلتها.

الأمر مُحيّر ومن الصعب التدخل في أمور عائليّة، خاصّة حينما يتعلق الأمر بالعِرض والشرف، ولم يكن لمسؤول المحليّة علاقة

حزبيّة مباشرة مع خال هدية، ولا يعرفه كصديق، فأخذ يبحث عن صديق مشترك كي يسهل أمر الحديث بينهما. وأخيرًا قرروا مفاتحته عن طريق مسؤوله الحزبيّ، ونظّم لقاء بين الثلاثة في إحدى المقاهي التي يجلس فيها المثقفون وطلاب الثانويّة والشبان، تحدّث المسؤول الحزبيّ عن المشاكل الاجتماعيّة والجهل في مجتمعاتنا ومظلوميّة المرأة في هذه المجتمعات، وخلال حديثه كان يلقى ردود فعل استحسان من قبل الاثنين مما شجعه على مصارحة أمين المكتبة أنّ بنت أخته من بين تلك المظلومات، وأنّها تحت رعاية الحزب في الحفظ والصون وأنّها هربت لأنّها لم تقبل ظلم زيجة لا يرضى بها الله.

هنا تفاجأ الاثنان من ردّ فعل أمين المكتبة، الذي فقد أعصابه وأخذ يهدد ويعربد وكيف يسمح الحزب لنفسه بتشجيع فتاة ضدّ رغبة أهلها وأنّ شرف العائلة توغل في الوحل بسببكم وطالب أن يعلموه بمكان هدية، كي يتصرف ويغسل العار الذي لحق بهم بسببها، ووووو.

فقد مسؤول المحليّة والمسؤول الحزبيّ السيطرة على رفيقهما الذي حمّلهما مسؤوليّة ما حدث، ومهما حاولا إقناعه أنّهما لا علم لهما بالموضوع في حينه، وأنّ هدية ليست منتسبة للحزب، وإنّما هناك رفيق يريد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله، وستكون في الحفظ والصون من كلّ أذىً هي وعائلتها، إلّا أنّه لم يعر لكلّ الكلام أيّ انتباه وتركهما جالسين مندهشين: كيف يمكن لرفيق من المفترض أن يكون تقدميًّا أن تكون له ردّة فعل متخلفة كهذه!

لم يبق أمام رفاق حسين خيار سوى إيصال المعلومة المخيّبة للآمال، عن طريق رفاقه في الكاظميّة. صدمت الأخبار حسين، وشعر أنّه سوف يخيّب آمال هدية إذا أخبرها بتفاصيل ما حدث. ظلّ حسين يداور الموضوع في رأسه عدّة مرات، تحدث مع أبيه ومع أم ياسين بغرض إيجاد سبيل معقول ومشرف لهدية ويحلّ مشاكلها مع أهلها؛ لأنّه أحسّ بعمق مأساتها وشعورها بالغربة الأبديّة، ليس لأنّها بعيدة عن أهلها، إنما لأنّها لا تستطيع التواصل معهم بصفة أبديّة.

المشـايـــة

أحسّ حسين أن مهر هدية هو صُلحها مع أهلها، وأنّه يصعب عليه أن يتزوجها وهي في عزلتها المُذلة، عن أمها وأبيها وإخوانها وحارتها وصديقاتها من الجيران ومن زميلاتها أيام الدراسة، لذا لم يدخر حسين جهدًا بالتفكير، كيف وكيف وتذكر مقولة مُعلمه لينين، ما العمل؟

حسين شابّ شجاع ومقدام وثوريّ لدرجة أنّه يمكن أن يلجأ لحلول غير مألوفة، لذا توصل إلى قرار أن يذهب بنفسه إلى كربلاء ثمّ إلى عين التمر، وهدفه الوصول إلى والدها بطريقة أو بأخرى. تذكّر زميله في كليّة الهندسة ورفيق دربه السياسيّ "عبد العباس" من أهالي مدينة كربلاء، ويعلم أنّه من سكنة طرف العباسيّة، وهو من الأحياء الشعبيّة المعروفة بتوجهات موكبها

أيـام عاشـوراء بشـعارات ثوريّـة ذات سـمة سياسـيّة انتقاديّـة للمسارات الحكوميّة الخاطئة حسب تصوراتهم.

قرر حسين أن يذهب يوم الخميس إلى كربلاء بعد انتهاء الدوام كي يلتقي بعبد العباس، وقد استطاع العثور عليه دون عناء، أخذه عبـد العبـاس إلى بيـتهم، في طـرف العباسـيّة، وجهـزت والدتـه العشاء لهما، كان على شكل وليمة لضيف عزيز وبكميّة طعام تكفي لما لا يقل عن ستة أشخاص، بعدها شرح حسين الموضوع لعبد العباس، كما هو دون إخفاء أيّ معلومة يعرفها.

اسـتمع عبـد العبـاس للتفاصـيل مـن صـديقه أبـو عـلي، وتصـوّر حساسيّة الموضوع وصعوبته، اقترح عليه أن يُشرك أباه في هذا الموضـوع، لاعتقـاده أنّ هـذا الموضـوع "عـويص" ويحتـاج إلى شخصيّات ذات وجاهة اجتماعيّة كي تفكّ عقده. رحّب حسين بالفكرة، وقال له: "والله يا ريت الوالد يساعدنا بهذا الموضوع". اسـتمع والـد عبـد العبـاس للموضـوع بتفاصـيله، معتمـدًا عـلى توصية ابنه أنّ حسين إنسان شريف ومستقيم ويثق به ولا بدّ من مساعدته.

بعد تفكير لبرهة قدّم أبو عبد العباس رأيه الذي يعتقد فيه أن الموضـوع يجـب أن يُحـلّ عشـائريًّا أو دينيًّا بتـدخل أحـد السـادة الـذين لا يُـردّ لهـم كـلام، أو ربمـا في هـذه الحالـة عشـائريًّا ودينيًّا، مطمئنًا حسين، وقال له نم قرير العين وإن شاء الله وبجاه أبو فضل العباس نجد حلًّا مناسبًا غدًا، أمّا الآن فتصبحون على خير.

جلس الجميع على أذان الفجر القادم من منارات الحضرة العباسيّة، توضأ الجميع وصلوا صلاة الفجر جماعة بمشاركة حسين، وإن كان غير متدين، إلّا أنّه تربى على الخشوع الدينيّ في الكاظميّة، ولا يرى في ذلك تناقضًا يمنعه من أن يكون يساريًّا.

كانت مائدة الإفطار وليمة أخرى من أم عبد العباس إلى ضيفهم الكظماويّ، قيمر الهنديّة ودبس التمر الأسود والخبز الحار والجبن الأبيض الحلو، واستكانات الشاي المملوء نصفها بالسُكر. تحرّج حسين من حفاوة وكرم عائلة عبد العباس وخاطب الأم قائلًا: "خالة الله عليك ما مطلوبة زيارة لأبو الجوادين، وتحلون ضيوف علينا؟ والله الوالدة راح تفرح بزيارتكم وإن شاء الله نقوم إلكم بالواجب". "والله يمه نتحسر على زيارة أبو الجوادين، إن شاء الله الحجي يسوينه همة ونتوفق بزيارة الأئمة".

بعد شرب الشاي، تحدّث الحجي أبو عبد العباس: "شوف وليدي، يشهد الله فكرت بمصيبة هذي البنية المظلومة، وموقفك المشرف لرعايتها، أرجو منك أن تكون صبور؛ لأن هذا الموضوع حسّاس جدًا، ويجب أن يتدخل به كبار القوم ونأخذهم ونروح مشاية، للوصول إلى النتائج المرجوة، وإلّا راح ندخل ونتفشل وتنتكس عكلنا". أبدى حسين تفهمًا واضحًا لوجهة نظر أبو عبد العباس، وقال له: "ممنونك حجي، الشور شورك، وأنت شتفصل إحنا نلبس". "إذن أترك الموضوع، وأصبر شي أسبوعين، وإن شاء الله إنردلك الجواب".

قام أبو عبد العباس بالاتصال بمعارفه من السادة، ورؤساء المواكب الحسينيّة وشعراء القصائد الحسينيّة، شارحًا الموقف

لهم، باحثًا عن صلة اتصال مناسبة في مدينة عين التمر، لهم مكانة دينيّة أو عشائريّة مؤثرة، وفعلًا حصلت عدة اتصالات وقرروا السفر مشاية إلى عين التمر واللقاء بمجموعة مؤثرة من وجهائها ممن يعرفون عائلة أم هدية، اتصل عبد العباس تلفونيًّا بصديقه ورفيق دربه حسين، وأخبره بالتطوّرات، وأبلغه أنّه ووالده سيكونان ضمن الوفد، على أن يبقى حسين بعيدًا عن الموضوع حاليًّا.

تمّ اللقاء في بيت أحد وجهاء مدينة عين التمر وتمّت دعوة أبو هدية للحضور، تحدّث أحد السادة من رجال الدين، كيف أنّ الدين الحنيف، دين تسامحيّ خاصّة مع الأبناء والبنات، ثم ذكر الآية الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

"﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ صدق الله العظيم.

وشرح معنى الآية وأسباب نزولها وهي أنّه يجب على المسلم التأكد من الأخبار التي يسمعها وخاصّة التي تمسّ الشرف والعِرض، وتكلّم الآخرون كيف أنّ التكافؤ في الزواج مهم جدًا لنجاحه، وكيف أنّ الله أوجب أن يتمّ الزواج بالقبول والتراضي، وفي النهاية، تكلّم السيد مع أبو هدية وقال له: "يا أبو هدية هذه المجموعة من وجهاء كربلاء وشفاثه، لديها طلب ورجاء عندك، ونريد الأمان أن تسمع وتوافق على ما نقول". لم يكن أمام أبو هدية إلّا أن يتعهد بالموافقة المسبقة دون قيد أو شرط. أكمل

السـيد قولـه لأبـو هديـة: "عـدنا إلـك بشـارة تسـتحق ذبـايح مـو ذبيحـة طلي واحـد، أبشـرك بنتك المحروسـة "هديـة" في الصـون والأمـان، وهي مـن البنـات الشريفات العفيفـات الـلاتي، لـم ترغـب بـالزواج مـن رجـل مـن عمـر والـدها، لـذا قـررت الـذهاب إلى بغـداد للعمل والدراسـة، وهنـاك شـاب من عائلة كظماويّة محترمة، يريد أن يتقدم إليكم كي يطلب يدها، ونريد أن نقوم بذلك يوم الجمعة القادم، فما هو رأيك؟ "

انـذهل أبـو هديـة واغرورقـت عينـاه بالـدموع، مـن شـدّة تـراكم المشـاعر المكبوتـة والخـوف والعـار الـذي كان كابسًـا عـلى صـدره طيلة السـنين الماضية ظانًا بابنته أبشـع الظنون، وما كان منه إلّا أن يعـترف أنّـه ظلـم ابنتـه مـرتين: الأولى حينمـا أراد تزويجهـا مـن رجـل كبير السـنّ دون استشارتها، والأخرى حينما ظنّ بها الظنون التي ما أنزل الله بها من سلطان.

الخطوبـــة

استأجر حسين باصًا يكفي لأم ياسين ومعها هدية وجميع العاملات في مشغلها، وأبيه وأمه ومجموعة من شيبة الكاظميّة الذين يكنّون المحبة والاحترام لحسين وعائلته، متوجهين إلى كربلاء حيث أدوا مراسيم زيارة الإمام الحسين (ع) وأخيه العباس قبل التوجه إلى عين التمر. رافقهم باص آخر يحمل عائلة عبد العباس ومجموعة من وجهاء كربلاء الذين التقوا بأبي هدية وحصلوا على موافقته المبدئيّة قبل أسبوع، وفي عين التمر التحقت بهم مجموعة من وجهاء عين التمر التي كانت ضمن جلسة الأسبوع السابق.

تحوّلت المحلة التي تسكنها عائلة هدية إلى أشبه بالمهرجان، وكأنّهم في عيد رمضان، ابتهاج بعد انكسار وتفاخر بعد مشاعر الخزي والعار، وحينما وصل موكب المشاية، بدأت الهلاهل

(زغاريد) من بيوت الجيران تصدح، وظهر رجال المحلة وكبارها مرحبين بالوافدين من الكاظميّة وكربلاء بحرارة وفرح عميقين؛ لأنّ المحلة كلّها كانت في انكسار واليوم أزيح هذا الغمّ وعمّ الفرح الجميع.

كان لقاء هدية مع أمها وأبيها وإخوتها لقاء بكاء ودموع من شدّة الشوق والفرح واستعادة الشرف الذي كان مطعونًا به جزافًا، ثمّ التقت هدية بصديقاتها اللاتي افتقدتهن واللاتي تعرضن للمضايقات من قبل أهاليهنّ خوفًا من تكرار تجربة هدية من قبل بناتهم.

تحدث الكبار مع الكبار وتمّ طلب يد هدية من والدها وحصل القبول المبدئيّ، ثم اقترح أحد السادة أن يتمّ عقد القران؛ لأنّ العريس يسكن في الكاظميّة وما زال الجميع موجودين. لمح الجميع بقبول الفكرة، إلّا أنّ الكلمة النهائيّة ترجع لوالد هدية، الذي فاجأ الجميع بقوله: "مع شديد احترامي وتقديري للسادة والمشايخ الأفاضل، إلّا أنّني لا أستطيع أن أوافق"، وتوقف عن الكلام لبرهة، وتوقف الجميع عندها عن الكلام، منتظرين استكمال الحديث، "قبل أن أدانش بنيتي، فهي التي ستتزوج ولست أنا، وأنا بهذا العمر تعلمت دروس قاسية ولا أريد أن أكرر الأخطاء"، على الرغم من استغراب الجميع، إلّا أنّهم استحسنوا كثيرًا ما قاله، وعدّوه قدوة لولاة الأمر حينما تُطلب أيادي بناتهم.

استأذن أبو هدية من النساء داخل البيت للاختلاء بهدية ووالدتها، وسألها: يا ابنتي الأمر يرجع إليك مئة في مئة، فهل أنت موافقة أم لا؟ شكرت هدية أباها كثيرًا والدموع تنهمر من عيونها

وعيون والدتها، وقالت له يا أبتي بعد إذنك أنا موافقة، ولكن القرار قرارك في النهاية، وإذا كنت موافقًا، أتمنى أن تشترط على حسين أن يسمح لي أن أكمل دراستي الجامعيّة، وألّا يمانع أن أعمل قبل وبعد التخرّج، ويكون هذان القراران، راجعين إليّ، وأن يعدني ألّا يتزوج امرأة ثانية عليّ، فيما عدا ذلك فأنا مُستعدة أن أعيش معه على الحصيرة. استغرب والد هدية من قوّة وحنكة وتفكير ابنته، لا بل تحوّل استغرابه إلى فخر واعتزاز، وخرج لجمع الزلم المحترمة، مرفوع الرأس، قائلًا: يا جماعة الخير، جيتكم هاي كلش جبيرة، وكلّكم تنحطون على الراس، لكن بنتي لا توافق على الزواج إلّا إذا وافق أبو علي وعائلته على شروطها، وكلامي من كلامها. وبعد أن سمع الجميع باستغراب شروط هدية وعائلتها، بادر حسين دون تردد، قائلًا: أصلًا إذا رادت هدية تبطل من الدراسة سوف لن أوافق، أنا أؤمن بحرية المرأة وأحترم قراراتها، وقرار العمل سيكون قرارها أوّلًا وآخرًا، وأنا لا أؤمن بتعدد الزوجات.

لم تنتظر النساء استكمال الجواب من أبي هدية، وعلت أصواتهن بالهلاهل دون انقطاع، وتمّ توزيع شربت البرتقال، والحلويات على الحاضرين داخل البيت الصغير والمنتشرين خارج البيت في الحارة التي عاشت يومًا سُجل في تاريخها، واتفقت العائلتان على أن يتمّ الزواج خلال فترة لا تتجاوز الشهرين، حيث كانت رغبة حسين وقبول هدية التي لم تُصدق أنّها تخلصت من كابوس بشع خيّم على حياتها طيلة السنتين الماضيتين.

الــزواج

قـررت هديـة وحسـين أن يتزوجـا في بدايـة العطلـة الصـيفيّة للعـام الـدراسيّ 1962/1961 الـتي سـيكون موعـدها بعـد حـوالي ثلاثـة أشـهر، وهـذا يكـفي لتحضـير مسـتلزمات الـزواج من ملابس وأثـاث وغير ذلك.

بقي أن يقـرر الاثنان، هـل يعيشـان مـع والديْ حسـين أو أن يؤسسـا بيتًا خاصًّا بهما، وعلى الـرغم من أن حسـين كان يفضّـل البقـاء مـع والديه، إلّا أنّه كان مستعدًا لما تراه وترغب به هدية، التي فاجأت حسـين بقولهـا في الوقـت الحـاضر أفضّـل البقـاء مـع عمـتي وعـمي؛ لأنّي عانيت من حرمان الدفـء العائليّ.

حجـز حسـين مقصـورة في قطـار بغـداد – البصـرة وحجـز فنـدقًا في منطقـة العشّـار في البصـرة، كي يقضـيا شـهر عسـل مناسـب بـدءاً

لحياة زوجية سعيدة، إلّا أنّ هدية طلبت من حسين أن يأخذها من بيت أهلها ويزفّها في شوارع عين التمر قبل أن يأخذها إلى المحطة العالميّة في بغداد كي يستقلا قطار الخط العريض الذي افتتح مؤخرًا.

وكان لهدية ما أرادت وخرجت من دار أهلها معززة مُكرمة مرفوعة الرأس، مُزكيةً لنفسها ولعائلتها التي عانت الأمرين، غادرت بيت أهلها وهي جالسة إلى جانب زوجها ودموع الفرح تنسكب على خديها دون توقف، تنظر بين الحين والآخر إلى أبي علي الشابّ المثقف الواعي والشهم الذي عمل المستحيل كي ينقذ حياة هدية ويعيد لها كرامتها التي كانت محل تساؤل وافتراء.

وعلى الرغم من أن تسميته شهر العسل، إلّا أنّه بالكاد كان أسبوعًا، غير أنّه اسبوع كان من العمر، خاصّة لهدية التي أحسّت بالحرية والانشراح لأوّل مرّة بعد الظروف الصعبة التي مرّت بها، وبالنسبة لأبي علي فقد وجد في هدية الزوجة والمرأة القويّة التي ستكون سندًا قويًّا يرتكز عليه في الحياة ويأتمنها على أسراره، واكتشف فيها وعيًا ونضجًا نادرًا لفتاة من عمرها ومن نوعيّة بيئتها.

كانت فرحة أم ياسين خاصّة جدًا فهي تعدّ الاثنين كأنّهما من أبنائها، لذا عملت لهما فرحًا بعد عودتهما في بيتها دعت إليه العاملين في المشغل وعوائلهم وعائلة هدية التي جاءت لحضور الاحتفال وزيارة الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد عليهما السلام. ولم تنس هدية أنّ تدعو صديقتها غنيّة كي تُعلمها وربما هناك في داخلها رغبة أن يصل الخبر لطارق، ليس نكايةً، بل

لتقول له إنّك أحببتني وتركتني تبرمًا دون عذر يذكر، وها أنا قد تزوجت من عرف قيمتي وأحبّني لذاتي وليس لانتسابي الاجتماعيّ.

عاشت هدية مع حسين أحلى أيام حياتها، محبة واحترام وأمان، كلّها كانت مفقودة من حياتها، وكانت عمّتها أم حسين وعمّها أبو حسين نِعم الأبوين لها، عمتها قالت لها بالحرف الواحد: "يُمه آنه ما عندي بنت والله رزقني بيج، واعتبري نفسك في بيتك وآني وعمج ضيوف عدكم، أريدج تركزين على مدرستج وتطلعين الأولى دائمًا بجاه هوّ موسى الكاظم، وتسعدين ابني حسوني".

عاشت هدية في هذه الأجواء الحقيقة بمشاعرها العفويّة دون زيف أو تملق، وكان ذلك أبعد بكثير من الحلم الذي كانت تتوقعه بعد الزواج، أمّا حسين فكان رجلًا ولا كلّ الرجال يخرج صباح كلّ يوم للعمل، لا يسهر ولا يشرب ولا يبتعد عن البيت إلّا لأمور التزاماته السياسيّة المتفق عليها، فيما عدا ذلك كان عفويًّا جدًا مع هدية، يساعدها في دراستها خاصّة في المواد العلميّة مثل الرياضيات والجبر، وبين الآونة والأخرى يذهبان إلى السينما معًا وهنا يبدأ الجدال، هدية تريد فيلمًا عاطفيًّا، وحسين يرغب بقصة ذات مغزى اجتماعيّ وسياسيّ، إلّا أنّه في معظم الأحيان كان يُلبي طلب هدية باعتبار أنّ الأمسية لها وهو يريد إسعادها.

لم يحاول حسين التحدث بالسياسة أو بآراء ونشاطات الحزب، وحاول أن يكون تأثيره بشكل غير مباشر، وهي بنفس الوقت لا تسأله ولا تحاول فتح باب يصعب إغلاقه؛ لأنّ حسين ليس حزبيًّا فقط وإنّما مثقف من الدرجة الأولى، ففضلًا عن كونه مهندسًا، إلّا أنّه قارئ جيّد ومتابع للأحداث المحليّة والعالميّة،

كما أنّه يعرف الكثير عن الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ للعمال والفلاحين، واقع يجسّد التباين الطبقيّ بين الغنى الفاحش والفقر المدقع، خاصّة في جنوب البلاد وسكان العشوائيّات من أهل الجنوب في مناطق الشعلة وخلف السدة أو ما يعرف بـ"شطيط"، كلّ ذلك يراه حسين من مخلفات النظام الإقطاعيّ الذي عاش وترعرع وازداد ظلمًا أمام أعين وجهاء العهد الملكيّ والإنكليز.

على الرغم من أنّ هدية لا ترغب بالسياسة إلّا أنّها تحبّ أن تقرأ

الــردّة

بـدل أن ينـام الصـائمون لوقـت متـأخر في صـبيحة يـوم الجمعـة المصـادف الرابـع عشـر مـن شـهر رمضـان عـام 1963، اسـتيقظوا على أصوات القنابل التي يُسقطها الطيار منذر الونداوي على وزارة الدفاع، هرع الجميع إلى الراديو والتلفاز ليسمعوا بدءًا من الساعة الثامنـة وعشـرين دقيقـة صـباحًا أصـوات لئيمـة، تشـبه النعيـق، تُبشّر في بيانها الأوّل بسقوط الجمهوريّة الأولى ومقتل الزعيم عبد الكريم قاسم، معيدة نشيد الله أكبر الذي يُذكّرنا بالعدوان الثلاثيّ على مصر عام 1956.

مدينة الكاظميّة مدينة يساريّة موالية للزعيم عبد الكريم قاسم وللحزب الشيوعيّ العراقيّ، تجمّع الناس فيها حال سماعهم الخبر المشـؤوم، وبشـكل عفـويّ في الأزقـة الشـعبيّة وناصـية الحـارات

القديمة، مثل حي موسكو ومحلة أم النومي وباب الدروازة وساحة الزهراء ومدينة النواب، بانتظار أن تخمد أصوات التآمر ويسمعوا صوت الزعيم كما حدث بعد محاولة اغتياله الفاشلة قبل ذلك بسنتين. طال انتظارهم ولم يسمعوا شيئًا مُغايرًا لما يسمعونه من إذاعة بغداد، أصابهم الفزع والملل والكلّ يسأل: ما العمل! حتى وصل بيان من الحزب الشيوعيّ إلى سوق باب الدروازة، الذي يدعو إلى مقاومة الانقلاب، ويدعو السلطة (الزعيم عبد الكريم قاسم) إلى تسليح الجماهير للدفاع عن مكتسبات ثورة الرابع عشر. من تموز عام 1958، وإلّا فعلى الجماهير أن تُسلّح نفسها بنفسها، وجاء في نصّ البيان:

"إلى السلاح لسحق المؤامرة الاستعماريّة الرجعيّة!

أيّها المواطنون! يا جماهير شعبنا المجاهد العظيم! أيّها العمال والفلاحون والمثقفون وسائر القوى الوطنيّة الديمقراطيّة، قامت زمرة تافهة من الضباط الرجعيّين المتآمرين بمحاولة بائسة للسيطرة على الحكم تمهيدًا لإرجاع بلادنا إلى قبضة الاستعمار والرجعيّة، فسيطرت على مرسلات الإذاعة في أبو غريب، وهي تحاول أن تثير مذبحة بين جيشنا الباسل لتنفيذ غرضها ... للسيطرة على الحكم". "إلى السلاح للدفاع عن استقلالنا الوطني، وعن مكاسب شعبنا! إلى تشكيل لجان الدفاع عن الاستقلال الوطنيّ في كلّ معسكر، وفي كلّ محلة ومؤسسة وفي كلّ قرية!

إلى الأمام، إلى تطهير الجيوب الرجعيّة، وسحق أيّة محاولة

استعماريّة في أيّة ثكنة وفي أيّة بقعة من بقاع البلاد". ينتهي البيان بالآتي: "إنّنا نطالب الحكومة بالسلاح! فإلى الأمام إلى الشوارع! إلى سحق المؤامرة والمتآمرين".

نزلت قيادات الحزب الشيوعيّ إلى الشارع مُعرفة نفسها للجمهور، داعية الجماهير لليقظة والحذر والتهيؤ للدفاع عن مكتسبات ثورة تموز، وأخذ كلّ من القياديّين مركزًا في مناطق تجمع مألوفة. من القيادات التي لعبت دورًا في قراءة البيانات وإصدار التعليمات، كان منهم حمدي أيوب العانيّ وهادي هاشم الأعظميّ والمقدم المتقاعد خزعل السعديّ وقاسم الواحديّ والشاعر مُظفر النواب ومحمد الورديّ. الأحداث تسير بسرعة هائلة وكانت إذاعة وتلفزيون بغداد تذيع البيانات المتلاحقة وبرقيّات التأييد الكاذبة، وكان بيانهم الأوّل قد أذاعه حازم جواد عضو القيادة القطريّة ليصبح لاحقًا وزيرًا للداخليّة في حكومة الردّة الدمويّة.

من بين كلّ الجمهور والقيادات المترددة برز شخص يحمل كلّ صفات الرجولة معروف في محلته وفي عموم مدينة الكاظميّة أنّه الرياضي البطل "سعيد متروك"، الذي تصرّف وكأنّه كان متهيأً لهذا الحدث منذ أمد بعيد، فأخذ المبادرة بقيادة مجموعة من الشبان الحزبيّين المدافعين عن الثورة والمقاومين لهذه الردّة التي خططت لها القوى القوميّة بالتعاون مع جهات أجنبيّة لا يروق لها ما حققته ثورة تموز من مكتسبات، والتي كان آخرها قانون رقم (80) لسنة 1961، الذي انتزع الأراضي غير المستثمرة من أيدي شركات النفط الأجنبيّة كي تستثمرها السلطة الوطنيّة لزيادة موارد العراق الماليّة لتحقيق المشاريع الاستثماريّة الضخمة.

كان حسين ملازمًا لسعيد متروك في كلّ تحركاته حاملًا السلاح معه وكان معهم من الشبان محمد أمين الأسديَ ورسول محمد أمين وعبد الوهاب المنذريّ والإخوة طالب وجواد وسامي أحمد السلطان وحميد غني جعفر، وقد توجهوا إلى مركز شرطة السراي في الكاظميّة، وبعد أخذ وردّ مع ضبّاط المركز والتهديد المباشر من قبل سعيد متروك لهم موجهًا رشاشة بور سعيد باتجاههم، استسلموا وسيطر سعيد متروك على المركز وأخذ يوزع السلاح على الجماهير مقررًا التوجه إلى مركز شرطة النجدة في ساحة الزهراء في منطقة الشوصة.

لم تستسلم شرطة النجدة، وحدث قتال عنيف لمدة أربع ساعات، سقط فيها العديد من الضحايا من الجانبين. اتخذت القيادة الحزبيّة من إعداديّة الكاظميّة مقرًا لها لإدارة دفّة مقاومة الانقلاب، وكان هناك من الرفاق الذين شاركوا عدنان كاظم السراج، وحميد الدجيلي، ومحمد رحمة الله، وفخري العامليّ ومحمد علي محيي الدين وجدوع الشلال ومرزة صاحب الشرع ابن الأسرة الشيوعيّة المعروفة في الشاميّة.

وصلت معلومات جيّدة إلى الكاظميّة، حيث عُلم أن جماهير مدينة الثورة الذين أحبّهم الزعيم وأحبّوه قد هبّوا لإسناده متجمعين بالآلاف أمام وزارة الدفاع مُطالبين الزعيم بتسليحهم، كذلك تحصنت الجماهير في منطقة باب الشيخ وعكد الأكراد بقيادة محمد صالح العبليّ ولطيف الحاج وآخرين، وفي الكرادة الشرقيّة سيطرت المقاومة على مركز شرطة الزوية ووضعوا المتاريس في الشوارع، وحاول المقاومون من منطقة الكريمات

الهجوم على مبنى الإذاعة الذي أصبح مقرًا للمتآمرين، إلّا أنّهم فشلوا للتباين الشاسع في العدد والعُدد.

رفض مدير شرطة نجدة الكاظميّة طلب المقاومين على الاستسلام، فحدثت معركة شرسة بقيادة المقدم المتقاعد خزعل السعديّ والشاعر مُظفر النواب وآخرين تكبّد فيها الجانبان إصابات عديدة، إلى أن بادر اثنان من الرفاق الذين باغتوا الشرطة بعمليّة بطوليّة وهما رسول محمد أمين وسامي أحمد السلطان، حيث استفادا من أحد البيوت المجاورة لمركز الشرطة وقفزا من سطحه على سطح مقر شرطة النجدة وتمكّنا من أسر معاون الشرطة الذي كان يقدّم إيعازه من السطح للشرطة، وبهذا تمّت السيطرة على مركز شرطة نجدة الكاظميّة وغنموا العديد من السلاح من مشاجب المركز.

لم يقف سعيد متروك مكتوف الأيدي بانتظار نتائج الأحداث، إنّما كان سبّاقًا وله حاسّة الثوريّ الذي يتوجس المخاطر ومصادرها، لذا قرر أن يأخذ مجموعة من الرفاق من ضمنهم المهندس حسين وعلي عبد الله ومحسن مهدي وآخرين إلى جسر الأئمة، لمنع خروق محتملة من منطقة الأعظميّة التي كانت وكرًا مُغلقًا للبعثيّين والقوى القوميّة والرجعيّة الأخرى، وفعلًا كان ما توقعه، حيث تصدّى سعيد متروك ومجموعته لزمرة مُسلحة قادمة من الأعظميّة وجرى الاشتباك معها وإنهاء دورها.

مدفع الإفطار

حلّ الظلام في ذلك اليوم المشؤوم يوم الرابع عشر من رمضان، المصادف الـ 8 من شباط عام 1963، وكان مدفع الإفطار ذو الصدى المتميز بمثابة إعلان لهدنة وقف إطلاق النار بين القوى التي تصارعت بقسوة منذ بزوغ الفجر، وصدحت المكبرات في كلّ مكان بأذان المغرب وكأن لسان حالها يعلن للمتحاربين أن القوا السلاح وتوقفوا عن سفك الدماء ولو لحين. اختفت أصوات المدافع والقنابل وصوت رشقات الرصاص المتتالية القادمة من رشاشات بور سعيد المصرية والكلاشنكوف الروسيّة، والناس الآمنين تمنّوا أنّ ذلك إعلان بنهاية الصراع.

ومع انطلاق مدفع الإفطار، بدأت العوائل في الحارات الشعبيّة، تُخرج من البيوت الصواني المحمّلة بالفطور لأبنائها الذين خاضوا حرب شوارع مع أفراد السلطة التي تهاوت وساندت الانقلاب.

وتحوّلت الاستراحة بعد الإفطار إلى هدوء بارد مخيف، والكلّ يعرف أنّ اليوم القادم ليس كسابقه، بدأ البعض بالصلاة وآخرون بالتدخين بشراهة، وكأنّهم يتحسسون ويتخوفون مما هو قادم لا محالة.

انسحبت القيادات إلى ثانويّة الكاظميّة، لتدارس الأوضاع ولوضع خطط المواجهة ليوم قادم لا محالة، كان واضحًا تردد حمدي أيوب العانيّ وهادي هاشم الأعظميّ، اللذين عدّا أنّ الموضوع بحكم المنتهي، ولا داعي للاستمرار والأفضل الانسحاب والهروب. أثار هذا الموقف ردود فعل عنيفة من قبل حسين ومُظفر النواب والمقدم خزعل الساعديّ، أمّا سعيد متروك فلم يترك مجالًا لانهيار المعنويات والاستسلام، وحسم الموقف، مطالبًا الجميع بتحديد موقفهم، إمّا الانسحاب بشكل فرديّ دون دعوة الآخرين للانسحاب أو البقاء معنا وتقبّل تعليمات القادة في الميدان، دون التحصن بالمراكز الحزبيّة التي لم تعد مجدية في مثل هذا الظرف.

حاول العاني والأعظميّ التحدث بنبرة سلطويّة مرّة أخرى، قاطعهم مُظفر النواب، مُذكرًا إياهم، كنتم تعلمون بوجود هذه المؤامرة منذ أشهر وتحذرون الشعب والزعيم وتطالبون بالاستعداد لمواجهتها، مع ذلك لا يوجد لدى الحزب ولو مُسدس واحد، فماذا تقصدون بالاستعداد؟ أمّا حسين فتحدث متذمرًا: أشغلتمونا في أمور جانبيّة تافهة لا دخل لنا بها، ما علاقتنا بالصراع العقائديّ الفارغ من المعنى بين السوفييت والصين، تجربتان مختلفتان، ومن المفترض أن تكون التجربة العراقيّة متميزة وخاصّة بما يلائم ظروفنا، أمّا القضيّة الكرديّة

فهي قضيّة صراع بين البارزانيّ والزعيم وليس صراعًا من أجل الحقوق القوميّة للأكراد، وهل حزبنا حزب قوميّ يؤمن بالصراع القوميّ والحقوق القوميّة أم حزب يقود الصراع الطبقيّ من أجل حقوق الشغيلّة والعدالة الاجتماعيّة! وتكلّم الآخرون الواحد بعد الآخر يلومون الحزب باعتمادهم على الزعيم لصيانة المكتسبات بدل اعتمادهم على أنفسهم. ترك العانيّ والأعظميّ الاجتماع وهم مُهانون، واعدين الحضور برفع ما سمعاه إلى الرفيق سلام عادل والمكتب السياسيّ، وبنفس الوقت حذروا المتكلمين، من أنّ هناك خروجًا على الانضباط الحزبيّ، وستتم المحاسبة على ذلك في الوقت المناسب، وبعد ذلك تسللوا في جنح الليل تاركين مدينة الكاظميّة كي تُقاوم الانقلاب بسواعدها دون وجود يُذكر للقيادة العليا.

اجتمع قادة الميدان بعد انسحاب العانيّ والأعظميّ، وناقشوا الوضع كما هو مُدركين أنّ اليوم قد انقضى دون أيّة ملامح لتحركات عسكريّة لإسناد الزعيم، وبالتالي فإنّ الوقت يمضي لصالح الانقلابيّين. انتهى الاجتماع باتخاذ قرار أنّ المقاومة قد بدأت والمقاومين أصبحوا معروفين من الأصدقاء والأعداء، يعرفهم الأهالي وتعرفهم السلطات، وبالتالي ما عليهم سوى الاستمرار أوّلًا، وثانيًا لا بدّ من إعطاء فرصة ليوم ثانٍ ولمفاجأة قد تحدث أو لا تحدث.

بيان رقم (13)

بعد أن جابه الانقلابيّون مقاومة مستميتة في وزارة الدفاع بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم وعبد الكريم الجدة آمر الانضباط العسكريّ والمرافق الأقدم وصفي طاهر والعقيد فاضل عباس المهداويّ وطه الشيخ أحمد وكنعان خليل حداد والرئيس الأوّل سعيد مطر وآخرين، بشكل متلازم مع مقاومة شعبيّة في العديد من الأحياء الشعبيّة مثل مدينة الكاظميّة وعكد الأكراد والشواكة وغيرها، قرر الانقلابيّون إرهاب الجميع وإطلاق العنان للقتلة كي يمارسوا مهمتهم تحت غطاء قانونيّ. وبذلك صدر البيان رقم (13) الذي كتبه طالب شبيب وزير خارجيّة الانقلابيّين ليصدر باسم الحاكم العسكريّ العامّ رشيد مُصلح، ولتذيعه هناء العمريّ بصوت مليء بالحقد والرغبة في الانتقام لأختها حفصة التي قُتلت في أحداث الموصل عام 1960. أُذيع البيان مساء يوم

الجمعة الثامن من شباط عام 1963 في حدود الساعة الثامنة مساء، وجاء في البيان:

"نظرًا للمحاولات اليائسة للعملاء الشيوعيّين... شركاء عدو الكريم!!.. في الجريمة... لزرع الفوضى في صفوف الشعب... وتجاهلهم للأوامر والتعليمات الرسميّة... فقد كُلف قادة الوحدات العسكريّة... والشرطة والحرس القوميّ بالقضاء على كلّ من يُعكر صفو السلام.... وإنّنا ندعو أبناء الشعب المخلصين إلى التعاون مع السلطات بالإعلام عن هؤلاء المجرمين... وإبادتهم".

وتحسبًا للهجمات المرتقبة التي حثّ عليها البيان رقم (13)، بدأ المقدم خزعل الساعديّ وسعيد متروك بتنظيم الحراسات وإعادة توزيع الأسلحة حسب أهميّة المواقع، مع إعطاء أهميّة لجسر الأئمة والخوف من زحف الأعظميّة، والمواقع التي يُتوقع أن تهجم عليهم مجموعات الخالصيّ-، التي استفحل نشاطها بشكل مريب وشرس، مستفيدة من الفراغ الأمنيّ الحكوميّ، حيث بدأت مجموعاتهم المسلحة تزحف تدريجيًّا من مدرسة الخالصيّ، فارضين أنفسهم على الأحياء والأسواق المجاورة، مستغلين بيان الحاكم العسكريّ العامّ رشيد مصلح رقم (13) سيئ الصيت الذي هدر به دم الشيوعيّين ومؤازريهم وأنصارهم، حيث ملأوا سرداب مدرستهم بشبان الكاظميّة من المناضلين الوطنيّين والشيوعيّين.

رعبٌ في البيوت

حينما انطلق الشبان بعد سماعهم البيانات المشؤومة بحدوث الانقلاب، بقيت النساء في البيوت حيارى يتابعن الأخبار عبر الإذاعة العراقيّة ويسمعن نعيق حقد وكراهيّة غير مألوفة للمواطن العاديّ، متسائلين عن سبب هذا الحقد الدفين على الزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه وعلى القوى الوطنيّة متمثلة بالشيوعيّين والقاسميّين من أبناء الطبقة الفقيرة التي منحتهم الثورة العديد من المكتسبات الماديّة والمعنويّة متمثلة بتوزيع الأراضي والمساكن والأراضي الزراعيّة بموجب قانون الإصلاح الزراعيّ، وفتح المدارس والمستوصفات في الأرياف والقرى والمناطق النائية، فضلًا عن إيصال خدمات الماء الصالح للشرب والكهرباء، وغير ذلك الكثير من الخدمات العامّة.

كانت النساء تخرج من البيوت، وتذهب إلى مناطق تجمع المقاومين سائلات عن شبانهم، ومنهم كانت أم ياسين وهدية العروس التي ما زالت تعيش حلم حياة جديدة مستقرة في بيت دافئ مع زوج يحترمها ويحبّها ويسهر على راحتها، حتى يعوّضها عن سنين العزلة والخوف والانكسار. طلبت أم ياسين من هدية أن تبقى في بيتها كي يتشاركا في الهمّ والتفاؤل ومتابعة الأخبار، وقرر الاثنان أن يجهزا طعام إفطار للمقاومين، مع بعض العاملين في الورشة للمساعدة.

إلّا أنّ هدية لم تستطع التحمّل لحين موعد الإفطار وقررت أن تبحث عن حسين كي تتأكد من سلامته، وتزفّ له خبرًا كانت تنوي أن تبوح به له في عيد رمضان كهدية عيد لا تُنسى لم يكن حسين في الخطوط الخلفيّة وإنّما في خطّ المواجهة يدير المعركة مع الرفاق. ظلّت تسأل عنه، وصولًا لعدة مواقع إلّا أنّه كان في تحرّك دائم لتنظيم المقاومة مع المقدم خزعل الساعديّ وسعيد متروك، حتى وصلت إليه، ووقع نظرهما على الآخر في لحظة واحدة مبهرة وكأنهما قد تفرّقا منذ أمد بعيد، بعيد جدًا. لم تقاوم هدية رغبتها فغمرته بعناق عنيف ممسكة به بأيدٍ فولاذيّة لم تدع له مجالًا للتحرك سوى أن يبادلها بنفس حرارة الحنان الذي أحسّ أنّه قد افتقده لدهر كامل. لم تستطع هدية أن تسيطر على مشاعرها وعلى شلالات الدموع المتدفقة من عينيها، ولا تدري أهي دموع لقاء أم بكاء فراق لا يطاق.

تنحّى المقاوم أبو علي جانبًا من مقدمة متاريس الاشتباك، كي يقضي بعض الوقت مع زوجته التي ما زالت عروسًا في سنتها الأولى، بادرها العريس بالقول: آسف حبيبتي تركتك على

استعجال لأنّي لا أدري ما الذي ستكون عليه الحال، وللأسف كما ترين فإنّنا في حالة دفاع عن مكتسبات الثورة، والأمور لا تبشّر بخير وعليك أن تكوني مستعدة لأسوأ الاحتمالات، يتكلم بأسىً وهدوء، إلّا أنّ خيال هدية سبق كلامه وبدأت ترى بأم عينيها النهاية المأساويّة. طلبت منه بتوسل الانسحاب، وربما الهروب إلى عين التمر للاختفاء وبدء حياة جديدة، قاطعها قائلًا: يا هدية، لم أخفِ عنك شيئًا، ووضّحت لك التزامي المبدئيّ الذي لا أستطيع التخلي عنه، قاطعته وهي تبكي بكاءً طفوليًّا: لكنّني حامل يا أبو علي!!

انتفض حسين بسماعه خبرًا محمولًا بصراخ مؤلم وكأنّ هدية طفل أضاع أمه في زحام وحينما بكى لم يسمعه أحد، فصرخ صرخة الإغاثة التي تصمّ آذان السامعين. انتفض حسين انتفاضة نائم على هدير صوت استغاثة من أعز الناس، ولكنّه ما زال مذهولًا مرتبكًا، أهو الخبر السعيد أهو هدية العيد، أم هو تهديد ووعيد؟ صراخ هدية كان صراخ أم وكأنّ الجنين محمول بين يديها، وكأنّ لسان حالها يقول: أتتركنا الآن ونحن بأمسّ الحاجة إليك، أتتركني وأنا في عز أيام حياتي، أتتركني وأنا ما زلت في عرسي؟

احتضن حسين هدية مقبلًا جبينها ويديها، مباركاً لها على الخبر السعيد، على الرغم من أنّه لم يستطع حتى تصنّع ابتسامة كي يثبت لها مصداقيّة ما يقول؛ لأنّه يعلم أنّ مصيره مجهول، لا بل الأرجح أنّه يعلم أنّ مصيره والرفاق من حوله مصير قاتم ومهول؛ لأنّ أعداءهم أصدروا عليهم أحكامًا مسبقة لا تقبل الجدل أو التفسير، إنّه البيان المشؤوم الذي أصدره الحاكم العسكريّ العامّ

رشيد مُصلح الذي أباح به دماء الوطنيّين والقاسميّين والمقاومين والشيوعيّين، دون محاكمة أو تحقيق.

لم يكن أمام حسين الكثير من الخيارات الآنيّة أو المستقبليّة، وكأنّ كلّ شيء محسوم ومحسوب ومكتوب على الجبين. أمام كلّ هذه الحيرة أو التبعثر في الأفكار، مسك حسين يد هدية مخاطبًا إياها بعيون حابسة للدموع وبظهر تقوّس وكأنّه شاخ خلال لحظات قائلًا: هدية اسم على مسمى، والله كنتِ أجمل هدية في حياتي، أحببتك واحترمتك وقدرتك بكلّ ما تحمله هذه الكلمات من معنى، والآن تحملين جنينًا من بُنات محبتنا لبعضنا، أؤكد لك سأحافظ على حياتي، ولكنّنا كما تعلمين نذرنا أعمارنا للحزب والوطن، لا سيطرة لدينا على الموقف، نحن متفائلون ومتشائمون في نفس الوقت، الزعيم ما زال حيًّا في الدفاع، ولكنّ لم يحصل على أيّ إسناد عسكريّ، ومقاومتنا الشعبيّة هي من حيث الأساس إسناد وليست قوّة أساسيّة تغيّر ميزان القوى، سنستمر بمقاتلة قوى الظلام، الأفضل أن تذهبي إلى البيت الآن وألّا تخرجي منه أبدًا حتى تنتهي الأحداث، أرجو أن تعذريني، فقدري مرهون بانتمائي، ومحبتي لك ولوليدنا القادم حافز إضافيّ كي نناضل من أجل مجتمع حُرّ تسوده العدالة الاجتماعيّة. قبل أن تذهبي يا هدية العمر اعلمي أنّك النسيم العطر في حياتي، إن عُدت إليك منتصراً سنربي ابننا أو ابنتنا على الأخلاق الحميدة وحبّ الوطن، وإن استشهدتُ يصبح ذلك مهمة على عاتقك أن تُعلمي الوليد أنّني استشهدت في سبيل أن تكون له حياة أفضل.

من الهجوم إلى الدفاع

بعد استراحة المحاربين على كلّ الجبهات، بدأت مرحلة الإعداد لهجمات متوقعة من عدّة جهات، الأولى جبهة جسر.الأئمة الذي يربط الأعظميّة بالكاظميّة، والثانية جبهة العطيفيّة عن طريق منطقة وشارع النواب، والجبهة الثالثة هي الجبهة الداخليّة التي يتزعمها الخالصيّ، والذي استغل الفراغ الأمنيّ ودعوة قادة الردّة بموجب بيان رقم (13) الذي أهدر دم الشيوعيّين والقاسميّين.

قاد سعيد متروك وخزعل السعديّ وحسين عمليّة الإشراف لوضع متاريس في كلّ بوابات مدينة الكاظميّة، مستخدمين جذوع النخيل لذلك، واختاروا شبانًا يتناوبون عليها، متوقعين هجمات من كلّ الجهات مع بزوغ الصباح وبعد صلاة الفجر.

إلّا أنّ الجبهة الداخليّة كانت مرتبكة كثيرًا، حيث بدأ أتباع الخالصيّ- بقيادة ابنه عبدو والمدعو سلمان بخي أحد شقاوات الكاظميّة التابعين للخالصيّ يعتقلون في تلك الليلة الشبان المعروفين بتوجهاتهم السياسيّة، ويأخذونهم إلى مدرسة الخالصيّ، التي تحتوي على سرداب تحت الأرض حولوه إلى معتقل كبير.

على الرغم من أن أغلب وقت ما بعد الفطور حتى الصباح كان هادئً قتاليًّا، إلّا أن مذياع الترانزستر الذي كان متوفراً بكثرة لم يتوقف لدقيقة واحدة، وكانوا يسمعون نعيق وشتائم المذيعين بالزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه ومؤازريه من الشيوعيّين والوطنيّين، رغم أنّ الشيوعيّين كانوا خارج السلطة، لا بل كان ما لا يقل عن ألفي شيوعيّ في معتقلات وسجون ودوائر أمن الزعيم، وهذا دلالة على أن هذه الحركة لم تأتِ للقضاء على الزعيم وسلطته القاسميّة، إنّما هدفها الأساس هو القضاء على المدّ الشيوعيّ والجماهيريّة الواسعة التي تمتعوا بها في هذه الفترة.

وبطبيعة الحال وبعد منتصف الليل، بدأ الخوف والقلق والرعب يسيطر على بعض الشبان الذين اندفعوا للانخراط بحركة المقاومة عاطفيًّا، دون أن يكون لهم انتماء سياسيّ أو حزبيّ. كان المشرفون على فصائل المقاومة متفهمين جدًا ومتساهلين، لا بل كانوا شاكرين لهم مشاركتهم، طالبين منهم ترك السلاح والعتاد لزملائهم الآخرين.

وحين بزغ الصباح تقلّص عدد المقاومين إلى أقلّ من النصف، إلّا أنهم كانوا من الشبان الملتزمين المؤمنين بقضيّتهم والمستعدين

للتضحية في سبيلها. في هذه الأثناء رجع هاشم الأعظميّ مبلغًا الرفاق تحيات اللجنة المركزيّة، وأنّ هناك مقاومة ضروس في منطقة عكد الأكراد والشاكريّة والكريمات والشعلة وغيرها من الأحياء الشعبيّة في بغداد والمحافظات الأخرى، وعليه توصي القيادة بالاستمرار بالمقاومة حتى القضاء على المؤامرة كما قضينا على مؤامرة الشواف في الموصل عام 1959.

الانتكاسة الكبرى

أثناء صباح يوم السبت الموافق التاسع من شباط، جرت عدّة محاولات لاختراق خطوط دفاع مقاومي الكاظميّة إلّا أنّ جميعها باءت بالفشل، حيث استطاع المقاومون الدفاع عن مواقعهم لصدّ هجمات التجمعات الأولى المكونة من بعض أفراد الحرس القوميّ بإسناد من مجموعات الخالصيّ. وحرس قوميّ من مدينة الأعظميّة، حيث ظلّ القتال أخذًا ورد، دون تحقيق نتائج ملموسة.

إلّا أنّه بعد الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر جاء الخبر من إذاعة بغداد، الخبر الذي غيّر مجرى الصراع وحدد نتائجه بشكل نهائي:

بلاغ من الحاكم العسكريّ العامّ

لقد تمَّ إلقاء القبض على عدو الشعب عبد الكريم قاسم ومعه فاضل عباس المهداويّ وطه الشيخ أحمد وكنعان خليل حداد من قبل القوّات المسلحة، وقد شُكّل مجلس عرفيّ عسكريّ لمحاكمتهم، وقد أصدر المجلس العرفيّ العسكريّ الحكم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص، ونُفذ فيهم رميًا بالرصاص، في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظُهر هذا اليوم.

التوقيع

الزعيم رشيد مُصلح الحاكم العسكريّ العام

وحقيقة الأمر أنّ الزعيم ورفاقه لم يتمّ أسرهم، إنّما كان هناك وساطة بادر بها يونس الطائيّ رئيس تحرير صحيفة الثورة، مفادها أن يتوقف القتال حقنًا للدماء ويُسمح للزعيم ورفاقه بالسفر إلى خارج العراق، أو أن تتم محاكمتهم محاكمة علنيّة أمام الشعب كما منح الزعيم مثل هذه الفرصة للعقيد عبد السلام عارف، وبموجب هذا الحوار تمّ وقف إطلاق النار وخروج الزعيم ورفاقه من بوابة محكمة الشعب الملاصقة لوزارة الدفاع وجرى ترحيلهم إلى مبنى الإذاعة العراقيّة التي كانت مقرًا مؤقتًا للانقلابيّين، وجرت محاكمتهم محاكمة صوريّة لمدة لا تتجاوز الخمس دقائق، بعد ذلك جرى رميهم بالرصاص بعد أن رفضوا تعصيب أعينهم، وهم يهتفون بحياة الشعب والوطن.

مواجهةٌ غير متكافئة

بعد أن تمت للانقلابيّين تصفية الزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه العسكريّين، وبعد أن تمت السيطرة على جميع المعسكرات في أنحاء العراق، عن طريق اعتقال جميع الضبّاط وضبّاط الصفّ والجنود المشتبه بمحبتهم للزعيم أو اليساريّين وخاصّة إذا كانوا شيوعيّين أو مؤيدين لهم، بعد أن تمّ لهم ذلك تفرغوا بشكل كامل للقضاء على المقاومة الشعبيّة في الكاظميّة والشوّاكة وباب الشيخ وعكد الأكراد والشاكريّة، والشعلة والكريمات وعمال ميناء البصرة وغيرها.

كان حسين الذي ما زال يعدّ نفسه في شهر العسل مع زوجته هدية في منتهى السعادة والانسجام في حياة عائليّة يحلم بها الكثيرون ولا يحصل عليها إلّا القليلون من ذوي الحظّ غير المألوف. إلّا أنّه في ليلة وضحاها وجد نفسه قد ضرب كلّ ذلك

عرض الحائط، استجابة لنداء الحزب الذي بالنسبة له نداء الوطن. وعلى الرغم من أنّ هدية أبلغته أنّها حامل، وعلى الرغم من أنّ ذلك أحلى خبر يودّ أن يسمعه، إلّا أنّ ذلك لم يزعزع إيمانه بأنّ ما يقوم به من تضحيات هي أسمى من حماية عائلته الصغيرة؛ لأنّه كان يدافع عن عائلته الكبرى، وطنه الحبيب، العراق الذي يستحق التضحية بنور العينين.

دارت معارك طاحنة بين الانقلابيّين والمقاومين، في أيام التاسع والعاشر من شباط، حيث توجه رتل من دبابات ومدرعات اللواء الثامن بقيادة داود الجنابيّ وبإسناد من الكتيبتين الأولى والثانية إلى ساحة عبد المحسن الكاظميّ، حيث اصطدموا مع المقاومين الذين كانوا يقاومون ويتراجعون في آن واحد؛ لأنّهم يخوضون معركة غير متكافئة، لا بالسلاح ولا بالمعدات ولا على التدريب على التصويب والقتال، كلّ الذي لديهم هو الشجاعة والاندفاع.

قاد حسين مجموعته التي قاتلت بشجاعة منقطعة النظير، وبنفس الوقت تستمر بالتراجع كلّما خسروا بعضًا من رفاقهم باحثين عن مواقع تساعدهم على الحماية والقتال في آن واحد، حتى وصل تراجعهم إلى تانكي الماء (خزان إسالة الماء) الذي حدثت به المواجهة الأخيرة، إذ استطاع المقاومون تحقيق إصابات قاتلة في صفوف قوّة الانقلابيّين المهاجمة، توجوها بقتل الملازم ثابت الآلوسيّ، بهجوم بطوليّ، إذ وقفوا بطولهم ووجهوا نيران رشاشاتهم نحو المهاجمين واستمروا بالسير والرمي في آن واحد حتى ارتقى عشرة شهداء الواحد تلو الآخر ومنهم البطل حسين أبو علي الذي ما زال عريسًا حين استشهاده.

أمّا البطل سعيد متروك فقد قاد فريقه إلى مقاومة ضروس للانقلابيّين الذين دخلوا مدينة الكاظميّة بالدبابات والمدرعات التي كانت بإمرة العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت والعقيد عبد الغني الراوي، واللذين استباحت أوامرهما المدينة المقدسة حتى القضاء على المقاومة قبل أن تتحول إلى نموذج وطنيّ يُحتذى به من قبل بقيّة المدن.

استخدمت القوّات المتقدمة أقصى ما لديها من قوّة ضاربة أدّت إلى استشهاد العديد من الرفاق، منهم عبد الأمير الحايك وإبراهيم الحكاك وناظم الجودي وعلي عبد الله ومحمد الورديّ. ومع ذلك استمر المقاومون بالمقاومة والتراجع طلبًا للحماية وللحصول على سلاح وعتاد، حيث إنهم ليسوا جنودًا مدربين على السلاح ولا يعرفون فنون القتال، لا يملكون سوى حبّهم الفطريّ لوطنهم ولقضية آمنوا بالدفاع عنها حتى الموت، وفي نهاية اليوم الحادي عشر من شباط، لم يبق من المقاومة سوى جيوب متفرقة هنا وهناك، قسم منهم هرب من خلال بساتين النخيل ومنهم من رحل إلى المشخاب والشاميّة ومناطق عديدة من الفرات الأوسط أمثال مرزة صاحب الشرع.

إنّ القوّة التي شكّلها الانقلابيّون بعد أن انتهت معركة وزارة الدفاع كانت قوّة دبابات ومدرعات، وهذا يعني أنّهم سيستعملون أقصى وأقسى الأسلحة والذخيرة، ليس باتجاه المقاومين فقط، وإنّما باتجاه بيئتهم الحاضنة مدينة الكاظميّة المعروفة بتوجهات شبانها اليساريّة، لذا حينما وصلت قطعات الانقلابيّين إلى ساحة عبد المحسن الكاظميّ، بعد أن قصفوها والأبنية المحيطة بها بمنتهى الوحشيّة، وجدوها فارغة ومحروقة والدخان يتصاعد

من البنايات الخالية من المقاومين الذين انسحبوا حاملين معهم ما يستطيعون حمله من الأسلحة والذخائر.

انسحب المقاومون إلى إعداديّة الكاظميّة ومركز الشرطة، تبعت ذلك عدّة انسحابات خلال أيام التاسع والعاشر والحادي عشر من شباط المشؤوم، وكان يوم الحادي عشر حاسمًا من الناحية العمليّة نتيجة نفاد عتاد المقاومين ومنهم من استشهد ومنهم من أصيب بجروح، ومنهم من قرر الانسحاب والاختفاء في البساتين المحيطة بالمدينة أو اللجوء إلى أقرباء خارج المدينة، ومن بينهم البطل المقدم خزعل السعديّ الذي اختفى في الوقت المناسب، إلّا أنّه اعتقل بعد شهر في يوم الحادي عشر من آذار من نفس العام وأعلن عن إعدامه يوم السادس والعشرين من أيار مع رفيقه فاضل البياتيّ.

أمّا البطل الأسطوريّ سعيد متروك، فإنّه انسحب ليمارس القتال على شكل أضرب وأهرب، يتنقل بين بساتين وأزقة مدينة الكاظميّة القديمة الذي يعرف تفاصيلها مغمض العينين. استمر على ذلك حتى الحادي عشر من شباط، حيث أدرك أنّ الدائرة التي تحاصره أخذت تضيق ساعة بعد ساعة، حينها قرر الذهاب إلى بيته كي يودع أهله وأطفاله، ورمى سلاحه الثقيل في بئر البيت وهدّم تنور البيت عليه للإخفاء والتمويه، وبدأ يتنقل من سطح إلى سطح حيث البيوت الشرقيّة المتلاصقة، ناويًا الوصول إلى بيت عمّه، إلّا أن أحد أفراد الانقلابيين لمحه ووجه النار عليه ليصيبه في ساقه.

استمر سعيد متروك بالتحرّك بين السطوح وأزقة محلة البحية وأم النومي والتي كُنيتها موسكو الكاظميّة، إلّا أنهم تتبعوا قطرات الدم التي كانت تنزف من ساقه، وتمّ اعتقاله بعد المواجهة ونفاد الذخيرة. اقتيد سعيد لجدار إعداميّة الشعب، وحينما أرادوا وضع العصابة على عينيه، رفض ذلك بعنف وهو يلعن المتآمرين، ويهتف بحياة الشعب العراقيّ وبالحزب الذي ينتمي إليه، في أثناء ذلك سُددت إليه زخات رصاص كثيفة دون توقف حتى بعد سقوطه على الأرض شهيدًا، دون تحقيق أو محاكمة مستندين بذلك إلى البيان رقم (13) سيئ الصيت، الذي أصدره الحاكم العسكريّ العامّ رشيد مصلح نيابة عن المتآمرين، وبذلك انتهت المقاومة المسلحة في مدينة الكاظميّة بعد تسجيلها موقفًا تاريخيًّا قاده رجال من أبنائها.

وبقي حائط ثانويّة الشعب لسنين عديدة مزارًا لأبناء الكاظميّة ومدينة بغداد الكبرى، مستذكرين استبسال الشباب بقيادة البطل الأسطوريّ سعيد متروك، الذي قاوم حركة الثامن من شباط عام 1963 الدمويّة التي أجهضت على منجزات ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958.

استباحة الكاظميّة

بعد أن انتهت المعارك في شوارع وأزقة وبساتين الكاظميّة، لم يكتفِ ويهدأ بال الانقلابيّين، لا بل إنّ انتهاء المقاومة فتح أبواب مدينة الكاظميّة على مصراعيها، للقوات العسكريّة المهاجمة ولعصابات الحرس القوميّ وأشقياء الخالصيّ كي يستبيحوا البيوت الآمنة دون سند قانونيّ أو إثبات أو دعوى بحثًا عن الشيوعيّين ومؤازريهم منتهكين بذلك كلّ الأعراف القانونيّة والأخلاقيّة والدينيّة، غير مبالين بالقيم العائليّة وبالنخوة العربيّة والعِرض والشرف للعوائل الكظماويّة، مبررين ذلك بالحقّ الذي منحهم إياه البيان رقم (13)، وفتوى السيد عبد المحسن الحكيم بأنّ الشيوعيّة كفر وإلحاد.

ومن دون تردد أو إبطاء بدأ الحرس القوميّ يثبت مواطئ قدمه في مدينة الكاظميّة، فحُولت مراكز شرطة النجدة ومراكز الشرطة إلى

مقرات للحرس القوميّ، بعد أن استعادها الانقلابيّون من إيدي المقاومين.

كذلك انتشر الحرس القوميّ في المناطق السكنيّة، مستفيدين من البيوت الشاغرة، كي يكونوا على تماس مع الجماهير المناهضة لهم خاصّة محلة أم النومي ومستغلين البنايات قرب ساحة الحمام والمدينة القديمة وقرب ساحة النهضة والنادي الرياضيّ الشتويّ.

استخدمت هذه المقرات للاعتقال والتحقيق والتعذيب، حيث لم يبقَ بيت في الكاظميّة لم يتعرض للمداهمة الهمجيّة، معتقلين الشبان والشيوخ، الذكور والإناث، الأغنياء والفقراء، العمال والمثقفين، من قبل المدنيّين أبناء الكاظميّة، الذين وضعوا على سواعدهم شارة خضراء بوشم (ح ق)، رمزًا لـ(حرس قومي)، وكان من بين من تمّ اعتقالهم من النساء أم ياسين التي تعرّضت ورشتها الصغيرة لانفجار بسقوط قنبلة طائشة أو مستهدفة؟ مما أدّى إلى تهدمها وتحطم كلّ ما فيها واحتراق مواد الورشة من خيوط، وصوف وقطن وغيرها.

أمّا هدية التي كانت تسكن مع حماها في بيتهم الذي تعرّض لمداهمة بمجموعة كبيرة من الحرس القوميّ، تسندهم آليات عسكريّة وجنود مدججين بالسلاح بحثًا عن القائد الشيوعيّ حسين الذي شُوهد من قبل أهالي الكاظميّة وهو يقود المقاومة ببسالة. جاءت هذه المجموعة تبحث عن أبي علي؛ لأنّها لا تعلم أنّه قاد معركة تانكي الإسالة واستشهد مع عشرة من رفاقه.

ولمّا لم يجدوا حسين في البيت أخذوا زوجته هدية معهم رهينة كي يسلّم نفسه، على الرغم من توسل أبي حسين وأم حسين بهما، قائلين إنّها حامل ولا تتدخل في السياسة ولم تشارك بأيّ نشاط، إلّا أنّ كلّ ذلك لم يكن ليكفي قائلين لهم، حينما يُسلّم حسين نفسه سنطلق سراح زوجته.

على الرغم من صلابة هدية وقدرتها اللامتناهية على التحمّل والصمود أمام تراكمات القدر القاسي، إلّا أنّها هذه المرّة أحسّت بالعجز على مواجهة غير متكافئة، أمام أناس لا تعرفهم، لأسباب لا تفهمها، وهي ليست حُرّة، إنّها زوجة وحامل وتنتظر اليوم الذي ستكون به أمًّا مثاليّة، أمًّا لا ترضى ان يتعرض ابنها أو ابنتها لما تعرّضت له من ظلم واضطهاد.

استمرت التحقيقات معها في الليالي المظلمة وفي بيوت عفنة من الرطوبة والأنفاس الكريهة، ولا تسمع فيها في الليل سوى أصوات الضرب بالصوندات وصريخ الضحايا الذي يهزّ الجدران، تسمع أصوات المحققين ينبحون كالكلاب المسعورة: اعترف، ما هو اسم مسؤولك الحزبيّ، هل شاركت في المقاومة، اعترف أفضل لك، خلّص نفسك وقل لنا من هو مسؤولك، حزبكم انتهى خلّص نفسك واعترف، اعترف وتبرّأ من الحزب وسوف نطلق سراحك، أستمر نفس الكلام ونفس الصراخ كلّ ليلة حتى الصباح.

هدية تنتظر دورها بخوف وبرعب خائفة على الجنين الذي في بطنها أكثر من خوفها على نفسها، حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة حينما نُودي عليها: ما هو اسمك الحزبيّ؟ كان هذا أوّل سؤال وجّه إليها، لم يكن لديها سوى جواب واحد: أنا لست

حزبيّة، كيف ذلك وزوجك عضو اللجنة المحليّة للكاظميّة، أنا زوجة وربّة بيت ولا دخل لي بالسياسة، أين حسين؟ لا أدري، أين حسين؟ والله العظيم ما أدري، متى آخر مرة شفتيه؟ صباح يوم الانقلاب، هل تسمين الثورة انقلاب وتقولين إنّك لست شيوعيّة؟ والله ما أعرف الفرق بين الاثنين، إذا أخبرتينا بمكانه سوف نطلق سراحك، والله العظيم ما أعرف، فكري بالموضوع أحسن إليك، أرجعوها.

ظلّ التحقيق مع هدية على هذا المنوال عدّة أيام وفي كلّ مرّة تزداد قسوة المحققين الذين هم من بين أبناء الكاظميّة، ممن التحقوا بالحرس القوميّ، وأصبحوا أكثر قساوة من أفراد الأمن المسلكيّين، وفي أحد الأيام كان أحدهم على وشك أن يضربها فتوسلت إليه وقالت له إنّها حامل! فتردد بعض الشيء إلّا أنّه مع ذلك ضربها، ربما ليس بنفس القسوة التي كان يرغب بها، إلّا أنّه مع ذلك قرر أن يبتزها بحملها وبجنينها، هل يستحق حسين أن تضحي بمولودك في سبيله، اعترفي قبل أن تفقدي جنينك، فكري بالأمر مليًا.

من بين الموقوفات معها كانت أم ياسين، وهي امرأة كبيرة بالسنّ، ولم تكن حزبيّة بمعنى الكلمة إلّا أنّها كانت صديقة ومناصرة للحزب، وقد وشت بها إحدى العاملات في مشغلها والتي حضرت بيت أم ياسين في احتفاليّة يوم المرأة العالميّ. ركّزت أم ياسين على حماية هدية وتحاول طمأنتها دائمًا، حتى أنّها قالت للمحققين عدّة مرات إنّ هدية تعمل معها وهي تعلم علم اليقين أنّها ليست حزبيّة.

على الرغم من أنّ هدية لم تتعرض للتعذيب الجسديّ؛ لأنّها بالفعل ليست حزبيّة، وبسبب عدم تعرّف أحد عليها، ولأنّها لم تشارك في المقاومة، إلّا أنّها شاهدت بأم عينيها وسمعت صراخ وأنين الضحايا، وعلمت أنّ بعض الضحايا ذهبوا للتحقيق ولم يعودوا؛ لأنّهم ماتوا على أيدي المحققين، وشاهدت كيف أن بعض الضحايا رجعوا وظلّوا يبكون نادمين؛ لأنّهم أُجبروا على الاعتراف على رفاقهم أو أنهم تبرأوا من حزبهم.

أخيرًا جاء الخبر لمقر الحرس القوميّ أنّ حسين انتهى مقتولًا في معركة "تانكي الإسالة"، وبالتالي لم يعد لزوجته فائدة تُرجى، فجرى ترحيلها مع سجينات أخريات إلى ملعب الإدارة المحليّة في المنصور الذي تحوّل إلى سجن للنساء تابع وتحت تصرف الحرس القوميّ، حاله حال النادي الأولمبيّ في الأعظميّة ونادي النهضة الرياضيّ في الكرادة الشرقية.

أُبلغت هدية بمقتل زوجها حسين في معارك المقاومة قرب تانكي الماء، أُبلغت بطريقة التشفي والفرح أنّهم قتلوا أحد أبطال المقاومة الباسلة في مدينة الكاظميّة، استقبلت هدية الخبر الذي كانت تخاف أن تسمعه برباطة جأش وبرأس مرفوع دون أن تنبت بكلمة واحدة.

رجعت إلى معتقلها واحتضنت أم ياسين وأجهشت بالبكاء المستمر الذي لم يتوقف طيلة تلك الليلة، علمت في أثناء ذلك أم ياسين السبب، ولم تمسك أوصالها حتى صاحت "اليبوه" بأعلى صوتها، هزّت بها أركان وجدران مقر الخيانة والرعب

والإجـرام. تمسّـكت أم ياسـين بهديـة الـتي أحبّتهـا كابنـة لهـا حـتى الصباح، محاولة تهدئتها وتهدئة نفسها من الخبر التعيس.

ملعب الإدارة المحليّة

وصلت مجموعة من عشر نساء من مقرات الحرس القوميّ في الكاظميّة إلى ملعب الإدارة المحليّة في المنصور الذي بات مقرًا للحرس القومي يُستخدم موقفًا عامًّا للنساء، وكانت من بينهن أم ياسين وهدية، وكانت في استقبالهم مجموعة من شبان مدينة المنصور الملتحقين بالحرس القوميّ، وهنا كانت المفاجأة، حيث كان من بين أفراد الحرس القوميّ "طارق" الشاب الميسور ابن صاحب محل بدلات العرائس في شارع النهر الذي كانت تعمل به هدية.

استغربت حينما رأته بالزيّ الكاكي حاملًا غدارة بور سعيد وهو الابن المدلل الخريج الجامعيّ الذي أحبّته في يوم ما، إلّا أنها غضّت النظر عنه متظاهرة أنّها لم تتعرف عليه، أمّا طارق فكانت رؤيته لهدية بهذه الحال وبوادر الحمل واضحة عليها، منظرًا لم

تتحمله أخلاقه البرجوازيّة الترفة المشبعة بالمثاليّة التي آمن بها حينما كان طالبًا جامعيًّا في كليّة التجارة، وهو بدوره كذلك تظاهر بعدم معرفتها.

أم ياسين التي كانت تسير خلف هدية عند قدومهن إلى سجن النساء لاحظت الارتباك على خطوات ونظرات هدية، ولاحظت ردود فعل الشابّ الذي كانت تنظر إليه، وعلمت أنّ هناك سرًّا بينهما. سألت أم ياسين هدية عن الشاب الذي كان واقفًا في الاستقبال، لم تجد هدية حاجة للإنكار فقصّت عليها القصّة باختصار شديد.

مضت تلك الليلة على هدية وطارق وهما يفكران، كيف سيتعاملان مع الموقف الجديد الذي وجدا نفسيهما فيه دون علم أو دراية أو تخطيط. لم يكن لدى هدية أيّ نوع من التفكير الرومانسيّ. فيما يخصّ طارق، إذ إنّها خسرت زوجها حسين والد جنينها وحبيبها والشخص الذي بذل من أجلها المستحيل حتى استرجعت كرامتها أمام أهلها ومحلتها ومدينتها في عين التمر، ومع ذلك فإنّ الأمر يبقى مربكًا جدًا.

ولم يكن حال طارق بأفضل من هدية، حيث يرى حبيبته السابقة ضحيّة للحرس القوميّ الذي ينتمي إليه، وبعد أن سأل وقلّب في الأوراق تعرّف على قصتها أكثر، ومن خلال قصتها وقصص أخرى تعرّف عليها منذ أن شارك في حراسة موقف النساء في ملعب الإدارة المحليّة، أخذ تفكيره يميل إلى إعادة النظر في كلّ ما يحدث، من توقيف وتحقيق وتعذيب وانتهاك

عرض النساء وموت في أثناء التعذيب، وقصص كثيرة سمع بها وقسم منها حدثت أمام عينيه.

من جهة أخرى فإنّ طارق ليس بعثيًّا وإنّما قوميّ، وأقرب حركة إليه هي "حركة القوميّون العرب" التي يقودها الفلسطينيّ "جورج حبش" وهي حركة مناصرة للرئيس جمال عبد الناصر تؤمن بالوحدة العربيّة وهدفها تحرير فلسطين. وكان من المفترض أنّ حزب البعث يسعى إلى نفس الأهداف في العراق وسوريا، إلّا أنّه بعد استحواذه على السلطة تماطل في إعلان الوحدة الفوريّة مع مصر، وبدأ الخلاف يطفو إلى السطح في الإعلام الرسميّ للدول الثلاث، والخلاف بين قيادات القوميّين والبعثيّين في العراق وسوريا، كلّ هذا جعل طارقّ أقل ولاء للحرس القوميّ وللسلطة الحاليّة.

ذهب في اليوم الثاني إلى متجر والده الذي أصبح يديره بشكل فعّال بعد تخرجه، واستدعى "غنية" صديقة هدية وبنت مدينتها عين التمر، وأخبرها بما رآه، لم تستطع غنية حبس دموعها، وأخذت تتوسل بطارق كي يساعدها ويطلق سراحها. لم يخفِ طارق رغبته في مساعدتها، إلّا أنّه أبلغ غنية: علينا أن نكون حذرين، وأريد أن تساعديني ونعمل سوية على مساعدتها، وأبلغته أنّها مستعدة لعمل ما يراه مناسبًا.

أعطى طارق مبلغًا من المال لغنية، وطلب منها أن تشتري ملابس وملابس داخليّة وصابونًا وكلّ ما يمكن أن تحتاجه شابّة في السجن، وأن تأتي في المساء حينما يكون هو في الحراسة وتزورها لأنّها صديقتها وتعطيها الملابس، وقال لها: تظاهري أنّك لا

تعرفيني عند الزيارة، وإذا قالوا لك كيف علمت بوجودها قولي لهم إنّك كنت تزورينها في مقر الكاظميّة وهم أخبروكِ بنقلها.

وهذا ما حدث بالفعل، ظلّ طارق يتجنب هدية، وانتظر وصول غنية التي كانت خائفة جدًا ومرعوبة على الرغم من ثقتها بطارق؛ لأنّها تعلم أنّه هنا ليس المدير وإنّما هو أحد أفراد الحرس القوميّ لا أكثر. حينما رأت هدية صديقتها غنية أجهشت بالبكاء المحبوس في صدرها لأهلها ولزوجها ولحريّتها ولجنينها الذي لا تعرف كي تحميه، وعلمت على الفور دون أن تسأل أنّ طارق هو من رتّب كلّ شيء، فأحسّت بشيء من الأمان الذي افتقدته في الأشهر الثلاثة الماضية، سألتها إن كانت تريد أيّ شيء آخر فقالت نعم، أريدك أن تجلبي الكثير من الملابس الداخليّة وبمختلف الأحجام والمناديل الصحيّة وكلّ ما تحتاجه النساء هنا، حيث خرجن من بيوتهن بهذه الملابس وما زلن بها منذ ثلاثة أشهر، وكلّنا شبه عراة. أبلغتها أنّها سوف تنسّق مع طارق هذه الأمور تدريجيًّا.

لم ينفك طارق من التفكير كيف ينقذ هدية ويطلق سراحها، حاول جمع معلومات أكثر وتأكد أنّها لم تكن حزبيّة، إنّما زوجها كان وقد قُتل في المقاومة التي حدثت في الكاظميّة. ونظرًا لكثرة المعتقلين، كان هناك قرار يسمح لأفراد الحرس القوميّ بتزكية موقوف لإطلاق سراحه على ضمانتهم ومسؤوليّتهم، اعتمد طارق على هذا القرار كي يطلق سراح هدية، إلّا أنه لم يكن من قيادات الحرس القوميّ وليس بعثيًّا وبالتالي فإنّ موقفه ضعيف جدًا.

تحدّث طارق مع أبيه في هذا الموضوع، قائلًا له إنّ هدية كانت إحدى العاملات المخلصات في ورشتنا، إلّا أنّها تزوجت شخصًا لم تعلم أنه شيوعيّ وقد قتل في الكاظميّة وهي ما زالت معتقلة دون ذنب وهي حامل وأحبّ مساعدتها إنسانيًّا، وأتمنى أن تساعدني في الأمر من خلال معارفك من السياسيّين الكبار. لم يخيّب أبو طارق ابنه وتوسّط لهدية ذلك أنّها إحدى موظفاته وأنّها حامل ومن المؤكد أنّها ليست حزبيّة كما كان زوجها.

وفعلًا صدر القرار بإطلاق سراحها، وطلب منها طارق أن يوصلها حيث تشاء، شكرته وطلبت منه أن يوصلها إلى الكاظميّة لبيت عمّها أبو حسين، لتعيش هناك على ذكرى بطلها حسين وتربي ابنه مع عمّها وعمّتها، ولتستمر بشقّ طريقها في العمل وطلب العلم مرفوعة الرأس غير منحنية فخورة بزوجها الذي استشهد وهو يدافع عن الوطن وعن المبادئ التي آمن بها.

المصادر:

فيما يخص أحداث الكاظمية عام 1963، جمعت وحققت المعلومات من عدة مصادر:

أوّلًا. المقابلات الشخصيّة مع شخصيّات من سكنة الكاظميّة، مع كلّ من:

1. حسين المصفايجيّ.
2. سعيد البزاز (أبو صفاء).
3. عاصم العكيليّ.

ثانيًا. كتب مذكرات:

1. طوارق الظلام: توفيق جاني الناشيّ وابتسام نعيم الروميّ.
2. أغاني الطريق: الاتحاد الديمقراطيّ العراقيّ وآخرون.
3. أيام لا تُنسى: همام عبد الغنيّ المرانيّ.

ثالثًا. بحوث ومقالات منشورة على الإنترنيت:

1. ملحمة الكاظميّة 8 شباط 1963، محمد علي محيي الدين، الحوار المتمدن، العدد: 2180 - 2008/2/10.
2. 8 شباط ومقاومة الشيوعيّين البطوليّة، عباس رحمة الله، فضاءات، 3 حزيران 2018.
3. الشهيد البطل سعيد متروك، ماجد مصطفى عثمان، حياة الشعب، 15 شباط 2022.
4. الشهيد البطل سعيد متروك ابن الكاظميّة، ماجد مصطفى عثمان، الشرارة، العدد: 164، آذار 2023، ص: 185-186.

5. بعض ذكريات من انقلاب الثامن من شباط المشؤوم عام 1963، حميد غني جعفر، الحوار المتمدن، العدد: 3997 - 2013/2/8.
6. انقلاب 8 شباط المشؤوم عام 1963 ومشروع قانون مؤسسة السجناء السياسيّين، جاسم الحلوائيّ، شبكة بوابة نركال الإخباريّة، 2010/1/22.
7. المقاومة الشعبيّة ضد انقلاب 8 شباط 1963، هادي حسن عليوي، صوت الأمة العراقيّة، مارس 2026.
8. أضواء ومواقف عن حياة الضابط الشيوعيّ خزعل السعديّ، الكاتب زائر غير معروف، المنبر الحر في المنتدى.

الفهرس

الاهداء 5
مقدمة 9
عين التمر 11
شارع النهر 15
بحيرة الحبانية 20
الشرخ 24
الكاظمية 27
سوق الاستربادي 30
مكائن أم ياسين 33
اعتقال حسين 36
جلسات أم ياسين 42
منتزه 14 تموز 45
التفكير بالزواج 48
عيد المرأة العالمي 50
الصراع العقائدي 56
المصارحة 60
المشاية 65
الخطوبة 70
الزواج 73
الردة 77
مدفع الإفطار 82
بيان رقم (13) 85

رعبٌ في البيوت 87
من الهجوم الى الدفاع 91
الانتكاسة الكبرى 94
مواجهةٌ غير متكافئة 96
استباحة الكاظمية 101
ملعب الإدارة المحلية 107
المصادر 113
الفهرس 115
المؤلف في سطور 117

المؤلف في سطور

1- بطاقة تعريف:

الاسم الكامل: محمد حسين علي أصغر النجفي.

مكان الميلاد: النجف الأشرف، العراق.

تاريخ الميلاد: 1 تموز 1947.

المؤهل العلمي: ماجستير في إدارة الأعمال.

الإقامة الحالية: كاليفورنيا، الولايات المتحدة.

2- الخبرة والتحصيل العلمي 1965 -1979:

- خريج الجامعة المستنصرية عام 1970، حاصلاً على بكالوريوس في المحاسبة وادارة الأعمال.

- خريج جامعة بغداد عام 1975، حاصلاً على شهادة الماجستير في ادارة الأعمال، ومنحت رسالته للماجستير حول اعادة تنظيم القطاع العام للتجارة الداخلية تقدير امتياز.

- عين عضواً في الهيئة التدريسية لقسم ادارة الأعمال في الجامعة المستنصرية للأعوام 1975 ولغاية 1979. ألف وشارك في تأليف كتب اعتمدت مقررات تدريسية.

- نشر العديد من البحوث والمقالات في دوريات البحوث الإدارية والاقتصادية بين الأعوام 1975-1979.

- اضطر كغيره للهجرة خارج الوطن في نهاية تموز عام 1979.

3- الخبرة والنشاط 1979- الحاضر:

- العديد من الوظائف الادارية في القطاع التجاري في كاليفورنيا، الولايات المتحدة.

- رجل اعمال مستقل ومستثمر منذ العام 1997 للوقت الحاضر.

- ناشط مدني، وباحث وكاتب في مواقع التواصل الاجتماعي. يكتب عن هموم العراقيين في الوطن وفي المهجر.

- ناشط في الحوارات الأدبية والسياسية على تطبيق الزوم، ومحاضر للعديد من المواضيع والمحاور المختلفة.

- رئيس تحرير الموقع الإلكتروني: أفكار حُرة

www.afkarhurah.com

- صدر له أربع كتب مؤخراً عن دار أهوار، شارع المتنبي، بغداد:
- المناضل الصغير: ذكريات مؤلمة من أيام الزمن الجميل، ربيع 2023.
- شموع لا تُطفئها الرياح: قصص قصيرة من تلك الأيام، خريف 2023.
- صفحاتٌ لا تُطوى: أفكار حُرّةٌ في السياسة والحياة، 2024.
- أسس التسويق الحديث: نُسخة منقحة ومُجددة، طبعة ثانية، 2025.
- صدر له باللغة الإنكليزية:
- Cheeq and The Jumpy Rabbit, Children story, Amazon
- مقالات وبحوث:
- أكثر من مئة وخمسون بحث ومقالة نشرت في دوريات ثقافية معتبرة، ومنشورة كذلك في موقعي الإلكتروني: أفكار حُرة:

www.afkarhurah.com

- إصدارات اثناء مرحلة التدريس الأكاديمي (1975-1979):

- تنظيم التوزيـع الداخلي للسلع، رسالة ماجستير.
- أسس التسويق الحديث (كتاب جامعي مقرر).
- إدارة المنشآت الصناعية (كتاب جامعي مقرر مع زملاء آخرين).
- العديد من البحوث والمقالات نشرت في الدوريات الاكاديمية والمهنية المتخصصة.

«فتاةٌ من عين التمر» روايةٌ تجسد المعاناة والوجع الإنساني الأبدي من خلال رحلة فتاة عراقية ذات شموخ وكبرياء رغم قساوة البيئة ذات التقاليد الثقيلة التي نشأة فيها، والتي قسم منها قاسياً جداً، ويلعب دوراً أساس في رسم مستقبل الأجيال.

إلا ان «هدية» بطلة روايتنا خاضت صراعها مع الزمن، وتحملت نصيبها من الوحدة والشقاء سعياً الى مستقبل زاهر ما وراء أفق مدينة «عين التمر» النائية..... إنها رواية تمثل معاناة العديد من الفتيات والنساء، لا بل أنها رواية العراق ومعاناته من تبعات الصراعات السياسية التي ما انفكت تلعب دوراً أساس في رسم مستقبله.

ISBN: 978-9922-5613-1-8

العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
e-mail: ahwar.publisher@gmail.com
page دار ومكتبة أهوار
أهوار للنشر والتوزيع
darahwar
07712482615
للتواصل مع دار أهوار عبر انستغرام